رواية
شيطان العرش
إسراء حسين
منشورات ساحر الكتب

شَيْطانُ العَرْشِ

حقوق النسخ© 2021 منشورات الفنار
حقوق التأليف© 2021 إسراء حسين
جميع الحقوق محفوظة لا يسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أى جــزء من هذا الكتاب ســواء ورقيًا أو إلكترونيًــا أو تخزينه فى نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأى شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر، ويجوز اســتخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهَّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار، تســتثنى أيضا الاقتباسات القصيرة المستخدمة فى عرض الكتاب.

المؤلف: إسراء حسين
عنوان الكتاب: شَيطانُ العَرش

الطبعة الأولى: 2021

تصميم الغلاف: عبد الرحمن محمد الإخراج الفنى: محمود عنتر
المراجعة اللغوية: إسراء حسين

ISBN: 9789779940885

رقم الإيداع: 10542 / 2021 م

١٥شــارع السبــاق- مصر الجديدة- القاهرة
المدير العام / أ. مصطفى أمين
www.facebook.com/elfnaar
elfnaar@gmail.com
http://elfnaar.com/

شَيْطانُ العَرْشِ

روايـــــة

إسـراء حسين

إهــداء

كُنْتُ خامِسَتَكُم يَوْمَ وُلِدْتُ وبيَ اخْتَتَمْتُمُ العَدَدَ.
واليَوْمَ أفْتَتِحُ كِتابي بِكُم؛
أُمِّي وأبِي وأُخْتَاي.
أنْتُم أوَّلُ مَنْ عَرِفْتُ في الحَياةِ،
وأوَّلُ مَنْ أهْدي لَهُ كِتابي.

تنويـه

تعمّدت الرَّاوية تجنُّب وصف الشّـخصيّات أو حتّى تقديمها، فليسوا إلّا عرائس تُحرِّكها أحداث الرِّواية، والّتي تخلو تمامًا من الأبطال باستثناء بطل واحد؛ ألا وهو العرش.

الحُكمُ هُوَ الشَّهوَةُ الَّتي لا تَنطَفِئ.. وهو الفِتنَةُ الَّتي تَسوقُ الخُلُقَ لِلتَّمَرُّغِ في الوَحلِ، فَيُحِلُّ المُشتَهي لِنَفسِهِ الخَطايا، ويُبَرِّرُ القَوِيُّ لِنَفسِهِ البَطشَ، ويُوجِبُ الخائِنُ على نَفسِهِ الغَدرَ.. هو الدَّفعُ والتَّدافُعُ في كُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ، والمُنافَسَةُ الَّتي لا تَعرِفُ الشَّرَفَ، والجَزَرَةُ الَّتي تَستَعبِدُ الحِمارَ حَتَّى تَنقَطِعَ أنفاسُهُ!

«كيف تَخافين وأنا مَعَكِ؟!»

قـالَ «سُـليمانُ» بِنـبرةٍ حانِيَـة، بينـما تضغط «ياسـمينُ» على يـده بِكِلتا الكَفَّيْنِ، وهي تتعمَّدُ جذبَه إلى الخلف في مُحاولةٍ منها لإبطاءِ حركته.

«هل لي أن أسْـأَلَ أُمِّي أوَّلًا؟»... سـألَتْهُ بِوَجـهٍ وَرْدِيٍّ بينما تقف أمامه وبـين قَدَمَيْهِ لِتعترض طريقـه... فَرَدَّ وهو يَلفّها ويدفعهـا بِرِفقٍ إلى الأمام لِتُتابِعَ السّيرَ قائلًا: «ولَكِنَّ خطوطَ الاتصالات قد اِنْقَطَعَتْ بَعْدَ أنِ اجْتَزْنا السِّياجَ».

– وكَيفَ إذًا سأتَحَدَّثُ مَعها في اللّيالي الثلاثَةِ القادِمة؟

– لا تقلقي، فسأعودُ بِكِ إلى خارِجِ الحُدودِ لِتُحَدِّثيها مَتَى شِئْتِ.

«أسَنَفْعَلُ مِثلهم؟».. قالَ «ريانُ» سائِلًا ظهرَ خطيبتِهِ «رَنا» الّتي تسبقه بِعِدَّةِ خُطواتٍ كعادَتِها.

– ولِمَ لا؟

– إذًا، ثمانِيَة.

حمزة: تِسعَة.

بكر: عَشَرة.

«ماذا سَـتَفْعَلُ يا خلدون؟».. سألَ «سُـليمان» صاحبَهُ الّذي تبدو عَلَيهِ علامـات التوتـر ويتصبب مـن جَبينه العَرَق.. فَـرَدَّ عليه قائِـلًا: «لَا أُريدُ الدُّخولَ»

– أفسَتَبْقَى وَحْدَكَ هُنا؟

– لا... فلا أُريدُ البقاءَ وحْدِي كَذَلِكَ.

- لا أفْهَمُ.

«لا بـأس، سـأدْخُلُ»... قـال مُتَلَعْثِمًا مع إشـارَةٍ باهِتَـةٍ مِن يَـدِهِ تُعْلِنُ الاستِسلام.

«لِمَ يَجِـبُ عَلَيْنا تَـرْكَ أمْتِعَتنـا وهَواتِفنا؟»... سـألَت «شـيري» مُتَأفِّفَةً بينما تخبط على كَتِفِ أخيها «شـاهين» والَّذي كان قـد تَوَقَّفُ فَجأةً بعدَ أنِ اتَّسَـعَت عَيْناهُ لِسَـبَبٍ مَجْهولٍ قبلَ أنْ يقولَ: «مهلا! لَقَد نَسـيتُ مِعْطَفي، فَسأعودُ سَريعًا إلى السَّيَّارَة لِأجْلِبَهُ»

***

«آسِف!»..

قالَ «شاهينُ» وهو يُهَرْوِل ويلهَث بعد غِيابٍ دامَ لعشر دقائق، بعدَ أن دَخَـلَ الجَميعُ إلَّا أختـه وصديقتها وأخاها الواقفين في انتظـاره بِقِلَّةِ صَبرٍ ومَلَلٍ.

«لِمَ تأخَّرتَ هكذا؟»... سـألَهُ «فارِسُ» قبل أن يُعطِيَهُ ظَهرَهُ، ثُمَّ أتْبَعَتْهُ أُختُهُ بِسؤالٍ آخَرٍ قائِلَة: «ألَمْ تَجِد مِعطَفَكَ؟»

- لا.

«سَـنَدخُلُ مِنَ البابِ البَنَفْسَجِيِّ»... قالَ «فارِس» بِصيغَةِ الأمرِ مُشيرًا إلى الباب، وكأنَّ لَإصبَعِهِ مِنَ السِّحْرِ ما يفتحُهُ من على بُعْدِ أمتارٍ.

«ولِمَ البنفسجيّ؟»... سألَتهُ أخْتُهُ وهي تَسيرُ وراءَهُ دون تَفكيرٍ، فَسُؤالُها عن السّـبَبِ لم يَكُـن إلّا بِدافِعِ الفُضولِ وليس لِاتّخـاذ القَرارات.. فأجابَها من بابِ الكَرَمِ لا الواجِبِ قائلًا: «إنَّهُ البابُ الوَحيدُ الَّذي لَمْ يُفْتَح بعد»..

«لا، لا أُحِبُّ البَنَفْسَجِيَّ»... قاطعهما «شاهين» وهو يلوح بيديه مُعترِضًا كالأطفال، ولَكِنَّ أحَدًا لَم يَرُدّ... فَنَزَلَ مائِلًا بِرَأسِهِ وكأنَّهُ يَتَوَقَّعُ نُزولَ الشُّهُبِ عَلَيْهِ مِنَ السَّماء، ثُمَّ هَمْهَمَ بعد أن ابتلع ريقه وحبس أنفاسه قائلًا: «أظُنُّ أنَّهُ موصَدٌ على أيِّ حالٍ».. ولَكِنَّ البابَ من سوء حَظِّهِ كانَ قد فُتِحَ بِيَدِ «فارس» قبل أن ينتهيَ من جُملَتِهِ، لِتشهَقَ إحدى الفتاتين عَميقًا وتصيح الأُخرَى عالِيًا.

***

الغَرَقُ في الجَفاف

كَم أنا غَبِيٌّ! ما الّذي جَعَلَني أنفَصِلُ عَنِ الجَميع؟ بَل ما الَّذي جَعَلَني أدخُلُ مِنَ الأساس؟ وكيف وَصَلتُ إلى هذا المَكانِ على أيِّ حالٍ! .. فَأنا لَم أقطَع كُلَّ تِلكَ المَسافَةِ وما خَطَّت قَدَمايَ الرِّمالَ، فَكَيفَ إذًا أصبَحتُ فَجأةً في مَركَزِ الصَّحراء؟! أخَرَجتُ مِن تَحتِ طبقاتِ الأرضِ أم سَقَطتُ مِنَ السَّماءِ؟ ومِن بَينِ كُلِّ الأبواب، لَم أختَر إلَّا البابَ الّذي يُلقي بي في أحضانِ المَوتِ والغَرَقِ في الجَفافِ!.

الآنَ فَهِمتُ لِمَ كُنتُ أسمَعُ أمِّي مُنذُ فَهِمتُ الكلامَ تقولُ دَومًا لِلنَّاسِ؛ «وَلَدي حَمزَة مَتعوس»... ولَطالَمَا أخبَرَني أبي أنِّي مُنعَدِمُ الذَّكاءِ ومَشئوم .. فَهنيئًا الآنَ لَهُما ولي! فَها أنا ذا لَم أُخَيِّب ظَنَّهُما ولَم أُكَذِّب قَولَهُما..

لا أرَى أثَرًا لِحياةٍ جارِيَةٍ أو سابِقَةٍ أو مُمكِنَةٍ في هذا الفضاءِ مُفرِطِ الصُّفرَةِ.. حَتَّى الهواء، لَم يَسلَم مِن رائِحَةِ المَوتِ الَّتي يَتَعَرَّقُ بِها المَكان.. مَلامِحُ الأشباحِ تبرُز مِن وراءِ السَّرابِ، وعُيونُ اليَأسِ تُبَحلِقُ في عَينَيَّ مِن جَميعِ الجِهات..

يَضيقُ صَدري مِن تُرابٍ يَتَسَرَّبُ إلى داخِلِهِ خادِشًا رِئَتَيّ كَالزُّجاجَ المَطحونِ، ولَا قُدرَةَ لي على تَحَمُّلِ صَوتِ صَفيرِ الهواءِ هذا.. أشعُرُ بِأعضائِي الدَّاخِلِيَّةِ تَتَشَقَّقُ وجِلدِي يَتَحَجَّرُ وشَفَتَيّ تَحتَرِقان... فَوَاللهِ لو كان مَعي سِكِّينٌ الآنَ، لَكُنتُ قَطَّعتُ عُروقي وشَرِبتُ مِن دَمِي لِأرتَوِيَ.

.. أيـنَ ذَهَـبَ ذاكَ البـابُ المُضَلِّلُ ذو اللَّـونِ الزَّاهي، بَعـدَ أن نَجَحَ في خِداعِي وإغواءِ خَيالِي الخِصب؟ حَتَّى خُيِّلَ إلَيّ أنِّي سَـأجِدُ من ورائه عالمًا مِن زَهورِ عَبَّادِ الشَّـمسِ والأقحوان والنَّرجِس، ثُمَّ أغوصُ في ثِمار المانغو وبَينَ أصابِع المَوزِ وحَبَّاتِ البابايا.

.. والله لأُقاضِي صاحِبَ هذه المَتاهَةِ على تِلكَ المُبالَغَةِ والتَعَدِّي لِحُدودِ السلامة، بَل والأدَب!

هـذا لا يَصِحُّ أبَدًا ولا يُعْقَلُ، فكيفَ لِلمَخـرَجِ أن يَغيبَ عَنِ اللُّعبَةِ أو يَتَلاشـى المَدخَلُ بِهذه السُّرعَةِ؟! أنا لا أتَذَكَّرُ أنَّهُ قَد رُفِعَ لِلسَّـماءِ أو سَـقَطَ إلى داخِلَ الأرضِ أمام عَينَيّ، كُلُّ ما أذكُرُهُ أنَّهُ قَدِ اختَفى بعدَ رمشةٍ واحدةٍ من عَينَيّ.

... مـاذا إن دَفَنـتُ نَفسي في مَكاني الآن؟ ألَن أُطرَدَ مِنَ اللُّعبَةِ بِانتِهاكِي القَوانين؟ ولكن ما هِيَ القَوانين؟ وهل هُناكَ قوانين مِنَ الأصلِ؟. لا يَهُم، فلا أظُنُّ على أيِّ حالٍ أنَّهم سَيتركونَني هُنا لِلْمَوتِ، فلا بُدَّ أنَّهُ سَيَتِمُّ إنهاءُ اللُّعبَةِ وإعلاني مِنَ الخاسِرينَ إذا حاوَلتُ قَتلَ نَفسي وإبداءَ استِسلامِي...

ولَكِن كَيفَ سأحفرُ قَبرًا لي في هذه الرِّمالِ الزَّلِقَة؟ ولِمَ هي زَلِقَةٌ إلى هذه الدَّرَجَـة؟ ولِمَ الهـواءُ ثَقيلٌ وعالي الكَثافَةِ إلى هذا الحَدِّ؟ أعَلَى سَـطحِ المرِّيخ أنا؟ لا، مَستَحيل.. فَكثافَةُ هوائِهِ أقَلُّ مِئَة مَرَّةٍ مِن كَثافَةِ هواءِ الأرض.. إذًا حَتمًا أنا على الزُّهرَة.. كَيفَ إذًا وأنا لا أحتَرِقُ؟ مَهلًا! ما هذا الذي أقول؟! أيُّ مَرّيخٍ وأيُّ كَثافَةٍ وأيُّ زَهرَةٍ ؟!. يا الله لقد عَبَثَت المتاهةُ بعَقلي!

الحَبيبان

«لا لا، لا تُخْرِجـي رَأسَـكِ»... هَمَـسَ «ريـانُ» في أُذُنِ «رنـا» بِغَضَـبٍ مَكْتوم وَخَوْفٍ مَفْضوح.

– أووففف... لا أَسْتَطيعُ كَتْمَ أنفاسي أكثرَ مِن ذَلِك.

– اِصْبِري حَتَّى يَمَلَّ أو يَنامَ، فليسَ هُناكَ ما يُمْكِنُ فِعْلُه.

– ما رَأْيُكَ أنْ أَرْمِيَهُ بِتلك العَظْمَةِ لِيَلْتَهيَ بِها.

– أتَظُنِّينَهُ كَلْبًا؟

– إنَّها عَظْمَةٌ كبيرة.. لَعَلَّها تَجْرَحُهُ أو تُسْقِطه!

– إنْ قَذَفْتِ شَيْئًا صَوْبَهُ، فَلَنْ تفعلي إلَّا إثارَة انتباهه إلَينا.

– لا يُمْكِنُنِـي البَقاءُ في هذا الكَهْفِ على مَقْرُبَةٍ مِن هذه العِظام والبقايا أكْثَرَ مِنْ ذَلِك، أرْجوكَ أنْ تَفْعَلَ شَيْئًا!

– أنا مِثْلُكِ أخْتَنِقُ في هذا التَّجْويفِ النَّتِن .. ولَكِن ماذا عساي أفْعَل؟

«يا إلهي لقد رآنا!»... قالت وقد تَسَمَّرَتْ وابيَضَّ وَجْهُهَا، بينما تقرص رُكبة صاحِبِها وتُلقِي بِنَفسِها عَلَيهِ دون وَعْي منها.

«إنَّـهُ صَوْتُـكِ الذي قد جَلَبَـهُ لَنا»... أجَـابَ مُوَبِّخًا وهـو يُزيحُ كَفَّها ويدفَعُهـا بَعيـدًا عنـه في عُنْفٍ، بعد أن فقـد أعصابه وقُدرَتَهُ عـلى التّحَكُّمِ في نفسه.

– أرجوكَ اِفْعَلْ شَيئًا! إنَّهُ يَقْتَرِب.

«اِجْمَعِي الأحْجارَ والعِظامَ لِنَسُدَّ المَدْخَلَ بِها».. قالَ مُتَلَعْثِمًا بينما ترتعش جميع أطرافه وينتفض قلبه.

أجابَتهُ وهي تَصرُخُ: «أجادٌّ أنتَ؟! نَحْتاجُ لشَهْرَيْنِ كي نَسُدَّ المَدْخَلَ بِتِلْكَ الأحْجارِ الصَّغيرَةِ»

– اِخْفِضِي صَوْتَكِ أيَّتُها الغبية! ألَدَيْكِ حَلٌّ آخَر؟

– أجَل، فسَنَرْكُضُ إلى الخارِجِ .. إنَّهُ بَطيءُ الحَرَكَةِ ولَنْ يَسْتَطيعَ اللّحاقَ بنا.

– بِالطَّبْعِ لَنْ أفْعَلَ ذَلِكِ!

... وتَحَسَّسَ الوَحشُ ساقَ المَذعورة المُحتمِيَةِ بِمَن هو أكثر ذُعرًا منها، داخل كَهفٍ لا يَسْتُرُ ولا يَأوِي.. فَما كانَ مِنها إلَّا أن دافَعَت عَن نَفسِها قبل أن تتسلَّلَ أصابِعُهُ لِتَتَحَسَّسَ المزيدَ من جَسَدِها.

– أيَّتُها المَعتوهَة!. ما هذا الّذي فَعَلتِ؟!

البائدونَ وخَلدون

تَبًّا لَكَ يا سُلَيْمان! لَيْتَنِي ما أطَعْتُكَ وما جِئْتُ في تلك الرِّحْلَةِ المَلْعونَة! فَلو كُنتُ أعْلَمُ أنَّكَ سَتَتَوَلَّى عَنِّي وتَذْهَبُ في اتِّجاهٍ آخَر مع ابْنَتِكَ لِتَتْرُكَني وحيدًا، ما كُنْتُ لأعبر السِّياجَ ولَكُنْتُ اخْتَرْتُ الوَحْدَةَ في السَّيَّارَةِ..

أما سَمِعتَني أقولُ «لَا أُريدُ البَقاءَ وَحْدي»؟ أفَلَمْ أكُنْ أتَحَدَّث العَرَبِيَّةَ حينَها؟ يالَكَ مِن أحْمَق!

لا أفْهَمُ لِمَ لَمْ يَنْتَهِ الأمْرُ بِكَ مَعي في حَرَمِ هذه المعابِد والأضْرِحَةَ والآثار، أَلَسْتَ مُرْشِدًا سِياحِيًّا مِثلي! فَلْتأتِ إذًا لِتَحومَ بَيْنَ الرُّكامِ المَهْجورِ، والتَّماثيلَ المُخيفَةِ الَّتي لا أعْرِفُ عَصْرًا ولا حَضارَةً لَها...

لا بُدَّ أنَّ المَتاهَةَ قَد أخَذَتْكَ مع ابْنَتِكَ إلى مَدينَةِ الألعابِ أو مَسْرَحِ الأطفال.. ولا شَكَّ أنَّكَ الآنَ تُطْعِمُها الحَلْوَى، وتَمْرَحُ معها بَيْنَ العَرائِسَ والمُهَرِّجينَ.. بَيْنَما أنا هُنا أشُمُّ رائِحَةَ الماضي وأعْمَهُ وَحيدًا بَيْنَ بقايا البائِدينَ، وأمُرُّ على سُدودٍ كالْعِهْنِ وصُروحٍ تكادُ مِنَ القِدَم تذوب..

لا أرَى هُنا غَيْرَ الفناءِ وإرْثِ الأموات.. ولا أسْمَعُ إلَّا صَدَى صَوْتِ أنْفاسي، مُمْتَزِجًا مَع قَرْقَرَةِ أمْعائِي.. لا أعْرِفُ هل تَحَوَّلْتُ إلى قِزْمٍ أم أنَّ أصحابَ هَذِهِ الأرضِ كانوا مِنَ العمالِقَة...

لا يُمْكِنُني أبدًا تَحديد هَوِيَّةِ أولَئِكَ القَوْم، فَلَمْ يَسْبِقْ لي مِن قَبْلُ أنْ رَأيْتُ في كِتابٍ أو مَتْحَفٍ مِثْلَ تِلْكَ الرُّسومِ والحُروفِ والألوان والعُمْلات...

هّـذِهِ لَا عِلاقَةَ لَهَا بِإمبراطورية الإنكا، ولا حضارَةِ المايا، وبالتَّأكيدِ لا تَمُتُّ للحضارَةِ الفرعونية بِصِلَةٍ...

يوحِـي إلَيَّ شَـبيهُ الكولوسـيوم ذلـك بأنَّهـا رومانِيَّـةٌ، ولَكِنَّها لَيْسَـت كذلِـك.. أفهِيَ الحضـارَةُ الصِّينِيَّـةُ إذًا؟ السُّـومرية؟ أم أنَّها حضـارةُ قَومٍ هبطوا علينا من الفضاء؟

أظُنُّ أنَّ وُجوهَ تِلكَ التَّماثيل تَحْكي قِصَّةَ شَخْصٍ ماتَ مُحْتَرِقًا، وشَخْص آخَـر مـاتَ خائِفًا.. وأعتقد أنَّ تِلْكَ المَرْأَةَ كانَتْ في طَوْرِ التَّحَوُّلِ لِشَـيْطان قبـلَ أن تَمـوتَ، وهذا الطِّفْلُ يَبْدو أنَّـهُ قد ماتَ مُتَجَمِّـدًا... تَجَمُّدُهُ في هذا المَكانِ أمْرٌ غَريبٌ حَقًّا! ولكن رُبَّما كانَ المُناخُ أكْثَرَ بُرودَةً وقَسْوَةً آنذاك... كُلُّ شيءٍ مُحْتَمَل.

ومِـنَ الواضِحِ كذلـك أنَّ أصحابَ هذه التَّماثيل لَيْسـوا مُـلَّاكَ المَدينَةِ الأصلِيِّـين، فيَبْـدو مِـنْ بقايا الأبراج والأسـوار أنَّ سُـكَّانَها كانوا جِسـامَ وأقْوِيـاء، بَل ومُخيفينَ أيضًـا.. فَتِلْكَ الزَّخارِفُ والرُّمـوزُ لا تَبْعَث الرَّاحَةَ في النَّفْـسِ أبَـدًا.. كَما أنَّ أثَرَ الألَمِ الّذي قَدْ سَـوَّمَ حِقبَتَهِم لا يَزالُ يَتَنَفَّسُ في الأطلال إلى الآن، فيبدو أنَّ العَذَابَ لَمْ ولن يُرْفَع عن هذه المدينة أبدًا...

تُـرَى ما الّـذي قد حَلَّ بِهَـذِهِ الأرض، ومـا كانَ مَصيرُ ذَلِكَ الشَّـعْبِ البائِـس؟ فَأيْنَ ذَهَبَتْ سُـقوفُ المَنازِلَ ومَـنْ حاوَلَ هَدْمَ تِلْـكَ المَعابِدَ، ولِمَ سَـعَوا إلى حَفْرِ تَلْكَ الخَنادِق؟ وإلى أيْنَ تُؤَدِّي تِلْكَ السِّرْاديبُ، وما سَـبَبُ كُلِّ مـا في الأرْضِ مِـن شُـقوقٍ وفَتَحاتٍ؟ وأيُّ قُوَّةٍ قَدْ نالَـتْ مِنْهُم بِذَلِكَ البَطْشِ وأدَّتْ إلى هذا الهَلاك؟ أزِلْزالٌ؟ أم صاعِقَةٌ؟ أمْ انْفِجارٌ؟ أم حَرْبٌ نَوَوِيّةٌ؟.

... تابَعْتُ جَوْلَةَ الضَّياعِ في هذه الوَحْشَةِ ووَسطَ هذا الخواء بَيْنَ الصُّخورِ العَمْلاقَةِ وداخِلَ أخاديد الجِبال، حَتَّى اسْتَوْقَفَتْني نَخْلَةٌ تَنْتَهِكُ أَوْراقُها حُرْمَةَ السَّحابِ.. وعلى بُعْدِ خُطُواتٍ مِنها، قُبَّةٌ مِنَ الطِّينِ وأَوْراقِ الشَّجَرِ تَبْدو كَمَدْفَنٍ على قِياسِ إنْسان، وصَوْلَجان أَحْمَرٌ مِنَ الكِريستال مَكْسورٌ.. وسَيْفٌ عَجيبٌ يَبْعَثُ الهَيْبَةَ في النَّفسِ، مَغْروسُ المَضْرَبِ في جِذْعِها، تَمْلَأُ نَصْلَهُ الخُدوشُ وبُقَعُ الدِّماءِ..

لَمْ يَكُن مِنَ الفولاذ ولا البرونز أو الحَديد، ولَكِن مِن مادَّةٍ أُخْرَى شَديدَةِ السَّوادِ والصَّلابَة واللّمَعان.. فَيبدو أنَّ تِلْكَ الشَّعوبَ قد عَرِفَتْ معادِنَ لَمْ نَكْتَشِفْها نَحنُ بعد، ولَعَلَّهُم كانوا مُفْرِطينَ الذَّكاءِ، أو يَمْتَلِكونَ قُوَّةً سِحْرِيَّةً..

لا أَسْتَبْعِدُ أمرَ السِّحْرَ ذَلِكَ، فَالرِّمالِ لَها مَلْمَسٌ غَريبٌ وتَتَلَوَّنُ عَشْرَ مَرَّاتٍ في الدَّقيقة.. وكذلك أَسْمَعُ صَوْتَ تَشْويشٍ في أُذُنَيَّ لا يَنْقَطِعُ أَبَدًا، وحينَ أَنْظُرُ إلى كَفِّي أراهُ ضَبابِيًّا، وإذا تَحَسَّسْتُ وَجْهي لا أَشْعُرُ بِأصابِعي تَلْمِسُه.. أرَى الأرضَ أَعْلَى مِن مُسْتَواها.. وأَشْعُرُ أنَّ السُّحُبَ تَطْفو مُباشرَةً فَوْقَ رأسي، فَأرفَعُ وَجْهي إلى الْأَعْلَى، فَأراها بَعيدَةً جِدًّا.. ثُمَّ أَخْفِضُ وَجْهي، فَأَشْعُرُ مُجَدّدًا بِسَحابَةٍ مُسْتَقِرَّةٍ في خُصْلاتِ شَعْري ومُتَدَلِّيَةٍ على جَبيني وأُذُنَيَّ، فَأَنْظُرُ مَرَّةً أُخْرَى لْأَعْلَى، فأراها قد عادَت تَمْكُثُ في السَّماءِ ولَا تَجْلِسُ على رأسي كما خُيِّلَ لي...

فمِنَ المُؤَكَّدِ أنَّ السِّحْرَ الأَسْوَدَ كانَ يُمارَسُ في هذا المكان، وأنَّ الدّبابيسَ والطَّلاسِمَ لاتزال مَدْفونَةً بَيْنَ ثَنايا ذَلِكَ الحَصَى.. ولا شَكَّ كّذَلِكَ أنَّ

أَصْداءَ شعائِرِ المَوْتِ لا زالت تَتَرَدَّدُ في الكُهوفِ، وطُقوسَ الشَّرِ مَحْفورَةٌ قَصائِدُها في الجِبالِ والمَسَلَّاتِ والصُّروحِ.

أو لَعَلَّ أصحابَ هذه الأرضِ كانوا مِن مَخْلوقاتِ الفَضاء ولَيْسوا مِنَ السَّحَرَة.. أو رُبَّما مِن عَفاريتِ الجِنِّ، وإنْ كانوا كَذَلِكَ؛ فَإنَّهُم حَتْمًا يَرَوْنَنِي مِن حَيْثُ لا أراهُم .. ولا بُدَّ أنَّهُمُ الآنَ يَكيدونَ لي شَرَّ الكَيْدِ، ويَبْتَكِرونَ مِن أجْلي صُوَرًا جديدَةً لِلقَتْل..

لا أدري مِنْ أيْنَ قد ظَهَرَتْ لي تَلْكَ الحُفْرَةُ المَلْعونَةُ مِن حَيْثُ لا أحْتَسِبُ، لِتَنْزَلِقَ بي إلى هذه الأرضِ المَسحورَةِ بَعْدَما تَعَقَّلْتُ وكِدْتُ أنْجو بِنَفْسي! لا شَكَّ أنَّ مَنْ غَطَّاها هُو شَيْطان على هَيْئَةِ إنْسانٍ لَعينٍ! أخْشَى أنْ أُحْبَسَ هُنا فَأصيرَ واحِدًا مِنْ تِلْكَ التَّماثيلَ وأتَشَبَّهُ بِهذه الوُجوهِ.

كيف لي أن أَفِرَّ الآنَ مِنْ بُقْعَةِ الشَّرِّ هذه؟!

.. سَأُجَرِّبُ تَسَلُّقَ الأبْنِيَة وأشْباه الجِدْران، فَلَعَلِّي أبْلُغُ الأسبابَ فَأطَّلِعُ على الأسْرار.. أو لأبْحَث في المخابِئ وتَحْتَ أنْقاضِ الأعْمِدَة، فَقَد أجِدُ العُقَدَ المَنْفوثَةَ ثُمّ أحِلُّها، فَيَبْطُل السِّحْرُ ويَنْصَرِفُ الأذَى.. أو لأتَمَدَّد في التَّوابيتِ وأطُف في المَعابِد وحَوْلَ المَسَلَّاتِ، فَعَسَى الأرواحَ العالِقَةَ تَمُدّ لي يَدَ العَوْنِ، أو تَدَعني وشأْني!

ياسمين

لَقَـد أخْبَرْتَنـي أنَّنا في الصَّبـاحِ الباكِرِ سَـنُقَطِّعُ الأخْشـابَ ثُمَّ نَتَسَـلَّقُ الأشْجارَ لِنَبْنِيَ بَيْتًا مِنَ الخَشَبِ فَوْقَها، ثُمَّ سَنَرْكُضُ حَوْلَها وبَيْنَها وأمامَها، ونَسْبَحُ بَعْدَ ذَلِكَ في البُحَيْرَةِ حَتَّى العَصْرِ قَبْلَ أنْ نَصْطادَ..

لَقَد جَعَلْتَني أشْـتَهي السَّمَكَ المَشْوِيَّ، وأتَلَهَّفُ لِسماعِ القصصِ حَوْلَ الحَطَبِ المُشْـتَعِلِ لَيْـلًا.. ولَقَدْ وَعَدْتَنِـي بِالتَّعَرُّفِ على كَوْكَبـاتِ النُّجومِ، وقُلْتَ لي أنَّنا سَـنُغَنِّي مَعًا، ثُمَّ سَـتَجْعَلُني أذوقُ الشّايَ.. ومَنَّيْتَنِي بِالدِّفْءِ في الخَيْمَةِ والنَّوْمِ في أمان.. فَأيْنَ كُلُّ ذَلِكَ الآن؟

ومَن سَـيُغَنِّي ويَقُصُّ القصـص بعدَ أن ذَهَبَ الجَميـعُ؟ ومِن أينَ جاءَ هـذا الثَّلْـجُ بَيْنَما نَحْنُ في الرَّبيع؟ فماذا قد فَعَلَتِ الشَّـمْسُ لِتُطْرَدَ بِلا رَجْعَةٍ مِنْ بَيْتِ الفَضاءِ؟ أرْتَكَبَتِ حَماقَةً لِتُعاقِبَها السَّماءُ وتَدْفِنَها تَحْتَ السَّحاب؟.

ومـاذا فَعَلْـتُ أنا يـا أبي حَتَّى تَتَسَـبَّبَ لي في هذا الألَمِ الشَّـديدِ الَّذي لا يَرْحَمُ عِظامِي؟ قُلّ لي ماذا أفْعَلُ وفي أيِّ اتِّجاهٍ أسـيرُ؟ وكَيفَ أسْتَرِدَّ قُدْرَتي على الحَرَكَةِ بَعْدَ أنْ تَجَمَّدَتْ أطْرافِي وتَصَلَّبَ الدَّمُ في عُروقِي؟

لِمَ لا تَـرُدُّ عَلَيَّ؟ ولِمَ كُلُّ شَيءٍ حَوْلي لَوْنُهُ أزْرَق؟ كَوَجْهِ طَاعِنٍ في السِـنِّ مـات مُخْنوقًا.. قلبي يكادُ يَتَوَقَّفُ مِنَ الخَـوْفِ، وعِظامي تَتَكَسَّرُ مِنَ البَرْدِ، ومَعِدَتي تَتَمَزَّقُ مِنَ الجُوعِ ..

وهذا خَطَؤكَ أنتَ واللَّوْمُ كُلُّهُ عَلَيْكَ!

ولَوْلاكَ لَكُنَّا الآنَ نَتَنَعَّمُ فِي بَساتين الدَّارْسي وحُقولِ شَقائِق النُّعْمان، ولَكُنْتُ الآنَ ألهو على أُرجوحَةٍ حَمْراء، بَيْنَما آكُلُ حَبَّاتِ الكَرَزِ والرُّمَّانِ تَحْتَ الشَّمْسِ الدَّافِئَةِ والسَّماءِ المَصْبوغَةِ بِلَوْنِ الغُروبِ... أَأُخْبِرُكَ أَنِّي أُحِبُّ الأحمَرَ فَتُلْقِي بي إلى الأزرق؟!. والآنَ تَتْرُكُني أُكابِدُ النَّفَسَ هُنا وَحيدَةً بَعْدَما جِئْتَ بي!

يا أبي لا أُريدُ أن أموتَ مِثلَكَ.. أفسأموتُ وأنا لَمْ أَتَعَدَّ العَشْرَ سنوات؟ ولِماذا؟ لِأَنَّكَ قد قَرَّرْتَ أن تَدْخُلَ بِنا إلى المَتاهَةَ بينما أنا أرجوكَ ألّا تَفْعَلَ.. والله لن أُسامِحَكَ أبدًا!

جَحيمُ بَكر

يـا إلهي أتَوَسَّـلُ إلَيْـكَ أن تُسـامِحَني! أرْجـوكَ أنْ تَجْعَـلَ أنْفـاسِي بَرْدًا وسَـلامًا، واهْدِني سَـبيلَ الخُروجِ قَبْـلَ أن أذوبَ وأحْـتَرِق.. فأنا لا أُطيقُ حَـرارَةَ المَوْقِدِ والفُـرْنِ في مَطْبَخي ولَوْ مِنْ بَعيدٍ، وأكْـرَهُ الصَّيْفَ وأبْغَضُ الشَّـمْسَ، وأمْقُـتُ الدُّخَانَ وأخافُ مِنَ الجِبال... أعْـرِفُ أنِّي قد أخطأتُ كثيرًا، ولَكِن هل لِدَرَجَةِ أن أعْلَقَ على حافَّةِ بُركانٍ ثائِر؟

أُقْسِمُ لو أنَّكَ أخْرَجْتَني مِن هُنا لَأتوب وأُعيد الحقوقَ لِأصحابِها!

أرجوكَ لا تَتْرُكْني هَكَذا في مَهَبِّ الحِمَمِ المُتَطايِرَةِ وتَحْتَ رَحْمَةِ الصُّخورِ المُشْتَعِلَة! فلا أُريدُ أنْ أصيرَ مِثلَ تِلْكَ الجُثَثِ المُعَلَّقَةِ وهذه الأشلاء المُتَدَفِّقَةِ لِلأعـلَى مِن فُوَّهَةِ الـبُرْكان.. ولا أُريدُ أن تَقْتَرِبَ الشَّـمْسُ أكثرَ مِن ذَلِكَ، فأنت تَعْلَمُ أنِّي لا أُقْدِرُ عَلى السِّـباحَةِ في أعماقِ النُّجومِ المُسْتَعَرَة، ولا أُجيدُ تَرْويضَ النِّيران وتَهْذيبَ البَراكين..

أرجوكَ لا تَتْرُكْني تَحْـتَ رَحْمَةِ نافِخِ الكيرِ العِمْلاقِ ذاكَ، ولا تَصْفَعْنِي بِالأحْمَـرِ ولا تُعَذِّبْني بِالبُرْتُقالِيِّ إلى الأبَـدِ... اِرْحَمْني مِن أجْلِ أمِّ وأبِي بَكْر، وانقِذْني فلا يُيَتَّم اِبْنُ وابْنَةُ بَكْر! وإن كُنْتُ في الجَحيمِ رُدَّني لِأعْمَلَ صالِحًا، ولا تُهْلِكْني بِسوءِ عَمَلي وشُرورِ نَفْسي..

أَتَذَكَّـرُ جَيِّـدًا عَـدَدَ الفُرَصِ الَّتـي قد أَلْقَيْـتَ بِها في طَريقي لِسَـنواتٍ، وأعْلَمُ أَنِّي قَدْ ضَيَّعْتُها جَميعًا بِسَـفاهَتِي مُتَعَمِّدًا.. فَلْتُزِدْ عَلَيْهِمْ الآنَ فُرْصَةً واحِـدَةً لا أَكْثَـر! وإنْ عُـدْتُ لِضَـلالِي، عُـدِ بِي إلى عَذابِ الحَريـقِ.. ولَنْ أَسْأَلَكَ حينَها اللُّطْفَ والمَغْفِرَة.

المَسحُورونَ الأربَعَة

«قد تَكونُ فَرَضِيَّةُ الأرْضِ المُجَوَّفَةِ لَيْسَتْ عُلومًا زَائِفَةً، ولَعَلَّنا الآنَ في مَدينَةِ شامبالا».. صاح «شاهين» مُهَلِّلًا بِوَجْهِ رَجُلٍ كَهْفٍ اِنْتَقَلَ بِالزَّمَنِ إلى عَصْرِنا هذا.

فارِس: عَفْوًا؟!

– أجل! فَلِمَ لا نَكونُ في عالَمٍ مَخْفِيٍّ تحتَ طَبقاتِ الأرض؟

– ما هذا الهُراء الّذي تَقولُه؟

– أَلَكَ تَفْسيرٌ آخَر؟

– إذًا أَنْتَ مِن مُؤَيِّدِي نَظَرِيَّاتِ الأرضِ المُقَعَّرَةِ.

– وما دَخْلُ الأرضِ المُقَعَّرَةِ بِالمُجَوَّفَةِ؟

– وما هو الفَرْق؟!

– أُسْطورَةُ الأرضِ المُجَوَّفَةِ تؤمِنُ بِوُجودِ مَداخِل وبَوَّاباتٍ تؤدِّي إلى مُدُنٍ وعَوالِمَ سُفْلِيَّةٍ في جَوْفِ الأرض، وبَعْضُ النَّظَرِيَّاتِ تَفْتَرِضُ وُجودَ نَواةٍ داخِلِيَّةٍ أو شَمْسٍ صَغيرَةٍ في مَرْكَزِ هَيْكَلِ الأرضِ الأجْوَفِ... أمَّا فَرَضِيَّةُ الأرضِ المُقَعَّرَةِ، فهي تَجْعَلُ داخِلَ الأرض خارِجَها، وخارِجَها داخِلَها .. وتَدَّعِي أَنَّ البَشَرَ يعيشونَ على السَّطْحِ الدَّاخِلِيِّ للأرض، وأنَّ الكَوْنَ كُلَّهُ يَقَعُ داخِلَ مَرْكَزِها.

– أنا لا أرَى فَرْقًا بَيْنَ النَّظَرِيَّتَيْنِ!

شيري: وما هِيَ شالامالا تِلْك؟

شاهين: شامبالا .. مَدينَةِ شامبالا.

فـارِس: أبالفِعْـلِ سَتَسْـتَمِرُّونَ في الحَديثِ عـن تِلْكَ الأُمور وتَنْسَـوْنَ مُصيبَتَنا وتِيهَنا؟

«أيُّ مُصيبَةٍ هـذه ونَحْنُ نَسْرَحُ في الجَنَّةِ؟»... رَدَّت عَلَيه أُختُهُ بِصَوْتٍ حـالِمٍ وهـي تَلُفُّ حول نَفسِـها كَالمُنْتَشِـيَةِ.. ثُـمَّ أتْبعَـتْ قائِلَـةً: «لِمَ قد نَوَدُّ الخُروجَ مِن نَعيم حَقْلِ أزْهار البَنَفْسَـج واللافندر هذا؟ أفَلا تَرَوْنَ الأنْهارَ البيضاءَ والفَراشـاتِ الوَرْدِيَّةَ والأشـجارَ البَنَفْسَـجِيَّةَ؟ ألا تَشُمُّونَ عُطورَ التُّرْبَـةِ ونَسـيمَ الأزْهـارِ وعَبـيرَ المـاءِ؟ ألا تَسْـمَعونَ غِنـاءَ الحُـورِ وألْحانَ الأوتـار؟ أرَأَيْتُم مِنْ قَبْـلُ جِبالًا مِنَ الذَّهَبِ وأحْجارًا مِنَ الماسِ؟. والله لا أتْرُكُ هذا المَكانَ أبدًا!»

رَدَّ أخوهـا بِحاجِبَـيْنِ مُرْتَفِعَـينِ ووَجْهٍ يَبـدو عليه القلق سـائِلًا: «عَمَّ تَتَحَدَّثينَ؟ أجَميعُكُم تَرَوْنَ هذا الّذي تَصِفُهُ فيروز؟»

شاهين: لا

شـيري: أنا أرى الأشجارَ البَنَفْسَجِيَّةَ والفَراشـاتِ الزَّرْقاء.. ولَا أرَى أكثَرَ مِن ذلِك.

فيروز: الفراشاتُ وَرْدِيَّةٌ.

شيري: بل زرقاء.

شاهين: الفراشاتُ خَضْراءُ، وكَذَلِكَ الأشجارُ.

«لَسْـتُ أرَى إلَا أوْراقَ الأشـجارِ البالِيَـةَ، والفراشـاتِ الصَّفْـراءَ،

والأنهـارَ الّتي على وَشْـكِ الجَفافِ».. قـال «فارس» بِوَجْهٍ أَصْفَـرٍ وعَيْنَيْنِ زائِغَتَيْنِ وهو على وشك البُكاء.

اِقتَرَبَت مِنْهُ أُخْتُهُ قليلًا ووَضَعَتْ يَدَها على ذِراعِهِ وهي تقولُ: «أَخْبِرْني مِنْ فَضْلِكَ أَنَّكَ تَمْزَحُ!»

«لا أَمْزَحُ»... رَدَّ وهو يبتعد عَنها بِعَصَبِيَّةٍ ويَتَعَرَّقُ.

- ألا تَشُمُّ الرَّوائِحَ كذَلِك؟

- أَتَقْصِدينَ رائِحَةَ الغُبار؟

شيري: بَل رائِحَةُ البَحْرِ.

شاهين: لا بَحْر ولا غُبار... بَلْ رائِحَةُ أوراقِ الشَّجَرِ.

فيروز: وماذا عَن رائِحَةِ الزُّهور والأنهار؟

شاهين: لَيْسَ لَها رائِحَة.

شيري: بل لِلزُّهورِ رائِحَةٌ باهِتَة..

فيروز: باهتة؟! لَمْ أَشُمّ من قبل رائحةً للزّهرِ ولِتُرْبَتِهِ مثل تلك.. كما أَنَّ لِماءِ الأنهارِ رائِحَةٌ شَهِيَّةٌ، لا أقوى على مُقاوَمَتِها..

«أنـتِ تَتَوَهَّمينَ أشـياء غَـيْرَ مَوْجـودَةٍ، أو لَعَلَّكِ تُخْفينَ شَـيْئًا عَنَّا!»... قالت صَديقَتُها بِنَبْرَةٍ عُدْوانِيَّةٍ وَشَكٍّ تَتَعَمَّدُ ألّا تُخْفِيَهُ.

- بل أَنَّكُم تَتلاعَبُونَ بِي!

- أَخْبِرينا بِصَراحَةٍ ما الأمْر؟

«أيُّ أَمْـرٍ هـذا؟. ولِمَ تَنْظُرينَ إِلَيَّ هَكـذا؟!»... صَرَخَتْ الأُخْرَى وهي على وشك أَن تَفقِدَ أعصابَها.

«من الواضِح أنَّ هذه الأرْضَ مَسْحورَةٌ وتَجْعَلُ كُلًّا مِنَّا يَرَى أشْياءَ غَيْرَ الآخَر، فَلا دَاعِيَ الآن لِلشَّـكِ والِاتِّهام».. قالَ «شـاهين» مُتَوَجِّهًا بِحَديثِهِ إلى أُخْتِهِ وهو يُحاوِلُ أن يَبْدُوَ مُتعاطِفًا ومُتَعَقِّلًا.

فيروز: وبِمَ قَدْ أُتَّهَمُ مِنَ الأساسِ؟ فما خَطْبُكُم؟

شاهين: اِنْسِي الأمْرَ... قُلْتِ أنَّكَ تَرَيْنَ أنْهارًا بَيْضاء، أليْسَ كذلك؟

- أجل.

- هذا يَعْني أنَّنا قَدْ نَكونُ في مَمْلَكَةِ شامبالا كما افْتَرَضْتُ مِنَ البِدايَةِ.

فارس: اللهُمَّ الصَّبْرَ مِنْ عِنْدِكَ!

شاهين: وهَلْ تَرَيْنَ قَصْرًا كَبيرًا يَنْبَعِثُ مِنْهُ نور؟

فيروز: لا

- هل تَرَيْنَ جِبالًا تُغَطِّي قَمَمَها الثُّلوج؟

- لا

فارس: عَظيم! الآنَ قد تَأَكَّدْتَ أنَّنا لَسْنا في شاباباالا؟

شاهين: شامبالا شامبالا شامبالا!

«سـأذْهَبُ إلى ذلـك اليَنْبوع».. قالَت «فيروز» وهـي تَتَحَرَّكُ في اتِّجاهِهِ كالمَسْحورَة.

شيري: ماذا؟! ألا تَرَيْنَ التَّماسيحَ فيهِ وحَوْلَهُ؟ أمَجْنونَةٌ أنتِ؟

- تَبْدو لي مُسالِمَة وأليفَة..

«لَمْ أسْـمَعْ مِنْ قَبْلُ عَنْ تَماسـيحَ أليفَة!»... نَهَرَهَا أخوهـا وهو يَدْفَعُها بِوَخْزَةٍ مُوجِعَةٍ في كَتِفِها.

«ولَكِنِّـي لا آراهُـم مُخيفينَ على الإطْـلاقِ!»... قالَتْ وهي تَمْسَـحُ على كَتِفِها وتَبْتَعِدُ عَنْهُم في تَمَرُّدٍ وَغَضَبٍ.

«اِنْتَظِـرِي قَبْـلَ أنْ تَذْهَبـي، ألاَ تُريدِينَ تَـذَوُّقَ هذه الزَّهْـرَةِ؟»... قالَ «شاهينُ» وهو يسْتَوْقِفُها كالشُّرْطِيِّ.

– ما هذه؟

– زَهْـرَةٌ نـادِرَةٌ تُحَسِّـنُ مِـنْ أداءِ القَلْـبِ والدِّماغِ، وتُقَـوِّي الأعْصابَ والعَضَلات، بل وتُحافِظُ كذلِكَ على صِحَّةِ العِظام وسَـلامَةِ الأمْعاء.. إنَّها أشْـبَهُ بِنَبْتَةٍ سِـحْرِيَّةٍ، وسَـتَعْمَلُ عَلى مَدِّكُم بِالطَّاقَةِ فَلَنْ تَحْتاجوا إلى تَناولِ الطَّعام لِأيَّامٍ، كَما أنَّ لَها مَذاقًا مُمَيَّزًا جِدًّا... جَرِّبوها ولَنْ تَنْدَموا أبَدًا!

هَزيمَةُ بَكر

..لَيْسَ لي إلَّا أنْ أسْقِطَ نفسي في الفُوَّهَةِ لِأَخْرُجَ مِنْها جُثَّةً مِنْ بَيْنِ آلافِ الجُثَثِ الّتي يَبْصُقُها هذا البُرِكانُ الشَّرِه، فلَمْ تَعُدْ أصابِعِي قادِرَةً على التَّشَبُّثِ أكْثَر مِن ذَلِك...

أعْلَمُ أنَّهُ يَشْتَهينِي وتَزْدادُ شَهْوَتُهُ جُموحًا كُلَّما سالَتْ شُحومُ جَسَدِي عَلَى حَوافِّ فيهِ، وكُلَّما تَبَخَّرَ ما في حَوْزَتِي مِنْ سَوائِل لِيَتَّحِدَ مع أبْخِرَتِهِ الهَوْجاء..

ولَقَدْ صَهَدَ حَرُّهُ جِلْدِي ولَحْمِي ثُمَّ انْتَقَلَ إلى أحْشائي.. أشْعُرُ بِالحَرْقِ دونَ أنْ أحْتَرَقَ، وأُجْزِمُ أنِّي أشْتَعِلُ بَيْنَما النَّارُ لَمْ تَمَسَّنِي..

ولَكِن كيفَ لا تَمَسُّنِي وأنا مُتَدَلِّيًا داخِلَ فَمِ البُرْكان؟. أفَهذه مَسْرَحِيَّةُ هَزْلِيَّةُ بِتَقْنِيَةِ الهولوغرام أصْبَحْتُ أنا أحَدَ عَرائِسِها دونَ سابِقِ عِلْم أو إنْذارٍ؟ حَتَّى صَدَّقْتُ أنِّي بِالفِعْلِ مُعَلَّقٌ عِنْدَ فوَّهَةِ بُرْكانٍ ثائِرٍ، ثُمَّ أخَذْتُ أتَوَسَّلُ المَغْفِرَةَ وأرْجو الرَّحْمَةَ وأتَعَهَّدُ بِالتَّوْبَةِ... كم أنا غَبِيٌّ وأحْمَق! فكَيْفَ أُصَدِّقُ هذا الهُراءَ وأفْزَعُ هذا الفَزَعَ؟

أما حانَ الوَقْتُ الآنَ لِأتْرُكَ نَفْسي لِلسُّقوطِ وأتَوَقَّفَ عَنِ الاسْتِهْزاءً بِعَقْلي؟ فَمِنَ المُؤَكَّدِ أنِّي سَأنْجو بَعْدَ سَقْطَتي هذه بِما أنَّ الأمْرَ كُلَّهُ خُدْعَةٌ مَحْبوكَةٌ لا أكْثَر.. ولا شَكَّ أنَّ قَعْرَ البُرْكان هذا الَّذي أهابُهُ، هو النَّجاة بِعَيْنِها والمَخْرَج الحَقيقِيّ الوَحيد...

ومـن المُحتمَـلِ أن يكونَ هُنـاكَ مَنْ يُشـاهِدُني الآن ويَضْحَـكُ بَعْدَ أن نَجَحَ في تَنْويمِي مَغْناطِيسِـيًّا، وعلى الأرْجَحِ كَذَلِكَ أنَّهُ يُقَهْقِهُ حالِيًا ويُشيرُ بِأصابِعِهِ عَلَيّ ويَتَباهَى بِقُدْرَتِهِ على التَّلاعُبِ بي...

فلأتَلاعَـب أنا بِهِ وأغْلِبـهُ في لُعْبَتِهِ الحقيرَةِ! ولأعْتَبِر أنَّ ما أعيشُـهُ الآنَ لَيْسَ إلَّا كابوسًا مُفْجِعًا..

ولَكِنْ ماذا إنْ كُنْتُ مُخْطِئا؟ أفَلَيْسَ مِنَ المُمْكِنِ أنْ تَكونَ تِلْكَ السَّـقْطَةِ هي هَلاكي الأكيد، أو أنْ أتَسَبَّبَ لِنَفْسي في الخُسارَةِ بَعْدَ السُّقوطِ فَتُعاقِبُنِي اللُّعْبَةُ بِما هُو أشَدّ وألْعَن؟

مـاذا أفْعَـل الآن؟ أفَآمَنُ لِحَظِي المَشْـئوم وأتْرُكُ نَفْـسي لِأهْوَى؟ أجَل، سـأفْعَلُ ذَلِـكَ.. فإنْ كُنْـتُ إلى الآن لَمْ أحْتَرِقْ، فهذا يعني أنِّي لَسْـتُ مُخْطِئًا وأنَّ ما أشْـهَدُهُ بِالفِعل لَيْسَ حَقيقِيًّـا.. فَيَجِبُ ألَّا أتَراجَعَ الآن عَنْ قَراري وألَّا أُضَلِّلَ نَفْسي مُجَدَّدًا..

أُتْرُك نفسَـكَ يا بكر لِتسْبَحَ في الجَحيمِ وتغوصَ في الحِمَم، اِحْتَرِقْ أمامَ من يَتَلاعَب بِكَ بِلا خَوْفٍ وانْطَفِئ يا بكر بِلا حَرَج...

...أغْمَضَ عَيْنَيْه لِيَدْخُلَ في سُباتٍ جَديدٍ ولِتَرْتَخِيَ أصابِعُهُ دونَ مُقاوَمَةٍ مِنْ عَقْلِهِ، فَيَسْقُطَ في وَهْمٍ أكْثَر رَحْمَةٍ ويَسْرَحَ في خَيالٍ أقَلّ خُصوبَةٍ، يَكونُ فيهِ قَلْبُ المَخْروطِ كَسْـلانًا وعَقْلُهُ هادِئًا وجَوانِبُهُ أقَلَّ انْحِدارًا.. ثُمَّ تَكونَ الشَّـمْسُ أكْثَـرَ ابْتِعادًا وتأخُذَ مَعَها كُلَّ ما في المُحيطِ مِـنْ ألوانٍ نارِيَّةٍ مُثيرَةٍ لِلأعْصاب..

ولَكِـنَّ السُّـباتَ لا يَزالُ يأبَى عَلَيْـه.. فكُلَّما أغْمَـضَ عَيْنَيْه تأتِ الحِمَمُ

لِيَسْتَفيقَ قَبْلَ أنْ يَغْفُوَ، أو يُسْكَب الماءُ المَغْلِيُّ على وَجْهِهِ مِن حَيْثُ لا يَدْري.. وما زالَ يَتألَّمُ ولا يَحْتَرِقُ.. ولا تَزالُ أصابِعُهُ تَسْتَمْسِكُ بِالحَياةِ في عالَمِ المَوْتِ وتَسْتَعيدُ قُوَّتَها بِغَيْرِ إذْنٍ مِنه، ثُمَّ تَتَخَطَّاها لِتَتَحَوَّلَ من اللَّحْمِ إلى الشَّظايا ثُمَّ إلى الرَّصيص..

وكذلك قد اكْتَسَبَتْ أظافِرُهُ قُدْرَةً جديدَةً على الغَرْسِ في الصَّخْرِ، إلى أنْ عجَزَتِ الجاذِبِيَّةُ عَنِ التَّصَرُّفِ ويَئِسَتْ مِنَ قُدْرَتِها على السَّحْبِ.. خُصوصًا بَعْدَ أنْ ذابَت كَفَّاهُ والْتَحَمَتا بِالصُّخورِ البُرْكانِيَّةِ، وانْدَمَجَتْ عُروقُهُ مع ما في عُروقِها مِن مَعادِن وبُلُّورات.. حَتَّى تَحَجَّرَت ذِراعَيْهِ وأصبَحَتا كُتْلَةً واحِدَةً مَعَ الصَّخْرِ الّذي قَدْ أحكَمَ قَبْضَتَهُ عَلَيْهِ كامِلًا، بَعْدَ أنِ انْتَشَرَ سَرَطانُ التَّصَخُّرِ في سائِرِ جِسْمه.. وتَوَحَّد مع الصُّلْبِ لِيَصيرَ بِأكْمَلِهِ جُزْءًا لا يَتَجَزَّأُ مِنَ نَسيجِ الجَبَلِ.

فِراقُ الحَبيبَين

– اُرْكُضْ أيُّها الأبْلَه! ماذا تَفْعَلُ؟

– لا أستَطيع.

– إنَّهُ جَرْحٌ سَطْحِيٌّ لا تُبالِغ.

«لِمَ فَعَلْتِ ذَلِكَ؟!»... سَأَلَ «ريانُ» خطيبتَه بِصَوْتٍ مُتَقَطِّعٍ بينما يَلْهَثُ ويَتَّكِئُ على الأرضِ بِرُكْبَتَيْهِ وجَبْهَتِهِ، ويضعُ يَدَيْه على الجرحِ في مُؤخِّرة رأسه.

«لِأَنَّكَ لَمْ تَفْعَلْ شَيْئًا!»... أجابَتْهُ وهي تَجْذِبُهُ من ملابِسِهِ لِيَسْتَقيمَ ويَقِفَ على قَدَمَيْهِ، ولَكِنَّهُ كانَ يَزْدادُ الْتِصاقًا في الأرْضِ حَتَّى كادَ يَخْتَرِقُ سَطْحَها.

– عليكِ اللعنة أيتها الغبية! فأنتِ مَن جاءَ بِنا إلى تِلْكَ الرِّحْلَةِ المَشْئومَة.

– أتُريدُ بِالفِعْلِ التَّحَدُّثَ عَن ذَلِكَ الآنَ؟!. إنْ لَمْ تَتَحَرَّكِ الآنَ فَسَنُكْمِل شِجارَنا بَيْنَ أنيابِهِ!

نَهَضَ «ريان» فَجأةً مِنْ سَجْدَتِهِ ونَظَرَ حَوْلَهُ كَالمَبْعوثِ مِنْ المَوْتِ قائِلًا: «أنا لا أراه، أتَسْمَعينَ لَهُ صَوْتًا؟»

«لا».. أجابَتْهُ وهي لا تُصَدِقُ ما تَقول، فَصاحَ كالطِّفْلِ بينما يُحاوِلُ الوُقوفَ على قَدَمَيْهِ كالسَّكْران مِنْ فَرْطِ اللَّهْفَةِ قائِلًا: «أظُنَّ أنَّهُ قد يَئِسَ وأعْرَضَ عَنَّا، أيَعْني هذا أنَّنا قَدْ رَبِحْنا اللُّعْبَةَ؟»

– لُعْبَة؟! يالَكَ مِنْ مَوْهوم ومِسْكينٍ! ألازِلْتَ تَظُنُّ أَنَّنا نَلْعَب؟

– بِالطَّبْع أظن ذلك! أَفَتُصَدِّقينَ أنَّ وُجودَ مِثْلَ هذا الكائِنِ على الأَرْضِ أَمْرًا حَقيقِيًّا؟

– بِالتَّأكيدِ أُصَدِّقُ، فَلَقَدْ وَقَعْنا في مَصْيَدَةٍ حَقيقِيَّةٍ، وما نعيشُهُ الآنَ بِالتأكيدِ ليسَ مِزاحًا..

– لا أعْتَقِدُ ذَلِكَ.. فَلِمَ قَدْ يَرْغَبُ شَخْصٌ في الإيقاعِ بِأَمْثالِنا؟!

– يالَكَ مِن حالِمٍ!

– فكيفَ تُفَسِّرينَ إذًا اخْتِفاءَ الوَحْشِ فَجْأَةً؟

– أظُنُّ أَنَّهُ قَدْ تَشَتَّت بَعْدَ أنْ وَقَعْنا في البِرْكَةِ واكْتَسَيْنا بِالطِّينِ.. هذا كُلُّ ما في الأمر.

«اُنْظُري!».... صَرَخَ «ريان» وهو يُشيرُ ويَقْفِزُ في ذُعْرٍ كَالطَّائِرِ المَفْزوعِ من رُؤيَةِ الوَرَل.

– .....لا، لا، لا، لاااا

– اللَّعْنَة! ماذا سَنَفْعَلُ الآن؟

«أَتَسْأَلُني أنا؟»... رَدَّتْ وهي تَرْكُضُ وتَسْحَبُهُ مَعها بَعيدًا عَنْهُم.

– إنَّ عَدَدَهُم يَزْدادُ، لَقَد جَلَبْتِيهِم جَميعًا... أَيَّتُها الغَبِيَّةُ!

– لقد كانَ حَجَرًا صَغيرًا!

– حَجَرًا صَغيرًا اسْتَقَرَّ في قَعْرِ عَيْنِه!

«اِقْفِزْ مَعي في ذلك اليَنْبوعِ!»... أمَرَتْهُ بَعْدَ أن وَصَلَتْ بِهِ إلى الحافَّةِ بينما الوحوش على بُعْدِ أمتارٍ مِنهُما، فَرَدَّ وهو يَبْتَعِدُ عَشر خطواتٍ لِلْخَلْفِ

وعَيناه تَتَّهِمانها بالجُنونِ قائِلًا: «يَنْبوع التَّماسيح الَّذي على بُعْدِ مِئاتِ الأمتارِ أسْفَلَنا؟!»

«لَـنْ أنْتَظِـرَ هُنا حَتَّى أغْتَسِـلَ بِلُعاب ذلك المَخْلـوقِ وأصحابه، افْعَل أنـتَ ما شِـئْتَ ودَعْني أنا وشـأني أسْـلُكُ طَريقـي!»... قالَت بِـكُلِّ حَزْم واسْـتِقْلالِيَّةٍ لَم يَعْهَدْها من قبل مِنها، فحاوَلَ بأعجوبَةِ التَّظاهُرَ بِالهُدوءِ ثُمَّ أمسَكَها بِحُنُوٍّ قائِلًا لها: «دَعينا نَعودُ إلى الغابَةِ ونَخْتَبِئُ بَيْنَ الأشْجارِ»

«ألا تُجيدُ سِـوَى الِاخْتِباءِ؟»... رَدَّت وهي تَدْفَعُـهُ في غَضَبٍ واهتِياجٍ بَعيدًا عنها.

– والله أعِدُكِ ألَّنْ نَدْخُلَ الكُهوفَ مُجَدَّدًا!

– أفي ظَنِّكَ أنَّ الغابَةَ آمِنَةٌ؟ ألَنْ نُقابِلَ فيها ما هو أغْرَب وأكثَر تَوَحُّشًا مِنْهُم؟

– سَنَتَسَـلَّقُ الأشْـجارَ أو نَحْفُرُ حُفْرَةً بَيْنَ جُذوعِهـا، ثُمَّ نَخْصِفُ على أجْسادِنا بالأوراقِ والأغصان فلا يَرَوْنَنا..

– أنـا لَـنْ أفْعَـلَ سِـوَى القَفْـز في اليَنْبوعِ، فعـلى الأقَلِّ تِلْكَ التَّماسـيحُ نَعْرِفُها، ولَكِنَّ هَيْئَةَ تلك المَخْلوقاتِ سَـتَقْتُلُنا فَزَعًـا قَبْلَ أنْ تَنْهَشَ أنْيابُهُم لُحومَنا... والله لَا أتَحَمَّلُ النَّظَرَ إلَيْهِم طَويلًا!

– ولَكِنَّنا قَدْ نَموتُ مِنْ تِلْكَ القفزَةِ العالِيَة، و ..... اِنْتَظِري!.. رنا!!!. رنا!!!!!!... خَلدون؟!

أحَدَثَ أم لَم يَحدُث؟

شيري: تَأَدَّبْ يا «شاهينُ» ولا تَصْرُخْ في وَجْهِ «فارس» هكذا!

فارس: أووففف... لَمْ يَبْقَ إلَّا أنْ تُدافِعِي عَنِّي أيضًا، ومِمَّن؟ مِن أخيكِ التَّافِهِ؟. أفَما أخْبَرَتْكِ أُخْتي مِئات المَرَّاتِ أنِّي لَنْ أُعْجَبَ بِكِ أبَدًا؟ فَلِمَ لا تَتَوَقَّفينَ عن مُحاوَلاتِ اسْتِهالَتي؟

– اِسْتِهالَتك؟. ما هذه المُبالَغَة؟

– مُبالَغَـة؟! ألا تُهاتِفينَنِي كُلَّ يَوْمَيْنِ بِحِجَج فارِغَة؟ ألا تُلاحِقينَنِي في كُلِّ مـكانٍ أذْهَبُ إلَيْـهِ؟ ألا تُزْعِجينَ حبيبَتي؟ ألا تَزوريـنَ أُخْتي كُلَّ يَوْمٍ تَقريبًا؟ أما جِئْتِ إلى تِلْكَ الرِّحْلَةِ مِن أجلي؟

– لَسْتُ مُضطرَّةً لِتَبْرِير فهمَكَ الخاطِئ.

– حسنًا.. سـأقولُها لَكِ صَراحَةً؛ أنتِ لَسْـتِ جَميلَةً ومِنَ المُسْتَحيلِ أنْ يُفَكِّرَ مِثْلي في الِارتِباطِ بِمِثْلِكِ... فأخْرِجيني مِن رَأسِـكِ، وأريحي نَفْسَكِ وأريحيني مَعَكِ!

– لطالَما أخبَرَتْني الفَتَياتُ عَنْ سوءِ أخْلاقِكَ وتَنَمُّرِكَ المُسْتَمِرِّ عَلَيْهِنَّ، ولَكِنِّي كُنْتُ أرْفضُ التَّصْديقَ... الآنَ فقط قد فَهِمْتُ حَقيقَتَكَ.

– لا بُدَّ أنَّهُنَّ كُنَّ أكْثَرُ قُبْحًا مِنْكِ، وكَذَلِكَ أكْثَرُ ذَكاءً وقُدْرَةً على المُلاحَظَةِ.

– يالَكَ مِن مَغْرورٍ وحَقير! لا أُصَدِّقُ أنِّي كُنْتُ مُعْجَبَةً بِك!

– وأنتِ عَديمَةُ الحَياءِ والكَرامَةِ.

شاهين: اِخرَس أيُّها الوَضيع!

فارس: أنا وَضيعَ؟. أمَجْنونٌ أنتَ؟!
شيري: ماذا تَفْعَلُ أيُّها المُخْتَلُّ؟!
فارس: أتَحْسَبُ نَفْسَكَ بِالفِعْلِ رَجُلًا؟
فيروز: أرجوكَ تَوَقَّف عَنْ ضَرْبِهِ!
شيري: والله إن يَحْدُثْ لِأخي مَكْروهٌ، لَأقْتُلَنَّكُما بَيَدَيّ!
فيروز: تَوَقَّفِ الآنَ يا أَخي أَسْتَحْلِفُكَ بِالله!
فارس: اِبْتَعِدي عَنِّي!
شيري: شاهين!
فيروز: ماذا فَعَلْتَ؟
شيري: شاهين!
فارس: دَعينا نَذْهَبْ مِن هُنا!
فيروز: أتُريدُنا أنْ نَتْرُكَها وَحْدَها بَعْدَ الّذي فَعَلْتَ؟
فارس: أنا لَمْ أفْعَلْ شَيْئًا.
شيري: لَمْ تَفْعَلْ شَيْئًا؟!
فارس: أخوكِ بِخَيْرٍ..
فيروز: لِمَ لا يَتَحَرَّكُ إذًا؟
فارس: هو فاقِدٌ لِلْوَعْي ليسَ أكثر.
شيري: سَأجْعَلُكُما تَتَوَسَّلانِ الرَّحْمَةَ مِنِّي!
فيروز: اِهْدَئِي يا عزيزتي، سيكونُ بِخَيْرٍ.
شيري: والله لأُقَطِّعُكَ إرَبًا أيُّها السَّفيه!
فارس: لا تَتَمادِي في اسْتِفْزازي أكْثَرَ مِن ذَلِك!

المَتعوسُ حَمزَة

اِسْتَفَقْتُ وأنا أبصُقُ حَبَّاتِ الرَّمْلِ مِن فَمِي وأزفِرُها مِن أنْفي.. لا أذْكُرُ إن كُنْتُ قد فقَدتُ الوَعْيَ أم أنَّ النَّوْمَ قد اخْتَطَفَني، ولا عُدْتُ أُعرف الفرقَ بَيْنَ اللّيْلِ والنَّهارِ.. وكأني قَد سَقَطْتُ في بَطْنِ ساعَةٍ رَمْلِيَّةٍ عِمْلاقَةٍ، أو تَحَوَّلْتُ إلى ذَرَّةٍ تَغوصُ في أعماقِ البَيْداء فلا تَرَى السَّماءَ..

لا أسْتَطيعُ التَمْييزَ بَيْنَ الوُقوفِ والاسْتِلقاء، ولا أدْري إنْ كُنتُ في وَضْعٍ عَمودِيٍّ أمْ أُفُقِيٍّ .. لا أعرف أُمَدَّدٌ أنا فَوْقَ أمواجِ الرِّمالِ، أم واقِفٌ بينَ الكُثْبان الضَّخْمَةِ.. وإنْ كُنْتُ قائِمًا، فَهل أقِفُ على رأسي أم على قَدَمَيّ!

... يا مَن تَرَوْنَني ولا أراكُم! أخبِروني مِن فضلكم؛ مَتَى سَيَنْتَهي كابوسُ هذه اللُّعْبَةِ السَّخيفَةِ ويَعودُ ذاكَ البابُ الشَّيْطانِيُّ الّذي قد أغْرَقَني في الأصْفَر؟! حَتَّى صِرْتُ أكْرَه ذَلِكَ اللّوْنَ وكُلَّ دَرَجاتِه، وألْعَنُ الخَلاءَ وأمْقُتُ الفَراغَ!

مَهْلًا! كيفَ نَسيتُ ذلك؟! أنا لَمْ أنْفَصِلْ عَنِ الجَميع كَما ظَنَنْتُ، بَلْ دَخَلَ مَعي «خَلْدون».. أنا مُتَأكِّدٌ مِن ذَلِك! فَإلى أيْنَ ذَهَبَ وكَيْفَ اخْتَفَى ولِمَ مُحِيَ من ذاكرتي هذا الأمرَ؟. وهل كانَ «فارِسُ» مَعَنا كذلك؟ أجل بِالتّأكيد كان معنا!

أصحيح أم أنِّي أتَوَهَّمُ؟. لا لَستُ مُتَوَهِّمًا، فلقد دخل كلاهُما من الباب الأصفر، أو رُبَّما دخل «خلدون» فقط..

لا فَـرْقَ، ولا يَهُمُّ ذلك الآنَ.. يَكْفِـي أنِّي قد تَأكَّدْتُ مِن عَدَمِ تَواجُدِي هُنـا وَحيدًا، فَمُجَرَّد وُجُودِ أحَدِهِم في الأرْجـاءِ، كَفيلٌ بِأنْ يُعيدَ لِيَ الأمَلَ ويَحُثّني على التَّجَلُّدِ.. فَلْأَصْمُدْ قَليلًا إلى أن أجِدَهُما في طَريقِي، ولأتَلَمَّسْ رائِحَـةَ البَشَرِ كَكَلْبٍ بوليسِيّ شَرِس! فَسَـأُنادِيهِما حَتَّى يُجيبا.. وسـأصْرُخُ حَتَّى أسْتَهْوِيَ الطُّيورَ مِن وَجْهِ السَّماءِ الآخَر فَتَقَعَ على رأسيهِما، ثُمَّ أسْمَع صَيْحاتِ الفَزَعِ مِنْ حَناجِرِهِما..

وسأتَقَدَّمُ في جَميعِ الِاتِّجاهاتِ وأسيرُ في دوائِر حَلَزونِيَّةٍ، لِأبْحَثَ في كُلِّ بُقْعَةٍ مُمْكِنَةٍ في طَريقي مِنَ الشَّـمالِ للجَنوبِ ومِـنَ الشّرْقِ للغَرْبِ، عن قَبْوٍ مَخْفِيٍّ تَحْتَ الأرضِ أو بِئْرٍ يَبْعَثُ ماؤها الحياةَ في خلايا جَسَدي مُجَدَّدًا..

ولَنْ أسْتَسْلِمَ لِلْزَوالِ، ولَنْ يَكونَ التُّرابُ آخِرَ ما أذوقُ، والأصْفَرُ آخِرَ ما أرى... وتَبًّا لَكِ أيَّتُها الصَّحْراء! فلَنْ تُرْهِبيني بِانْبِسـاطِكِ ولَنْ تَقْتُليني بِجَفافِكِ، ولَنْ تَغْلِبيني بِوقاحَتِكِ.

... سَـعَيْتُ على عَطَشي وإعْيائِي سَعْيَ الأُسودِ وَراءَ الفَرائِس، ولَكِنِّي لَمْ أمْلِـكُ قُوَّةَ الأسَـدِ وسُرْعَةَ اللَّبوءَةِ، وكَذَلِكَ لَمْ تسْـتَهْدِفْ عَيناي جَسَـدَ فَريسَتي كما يفعلان..

كُنْتُ أسـيرُ مُقاوِمًا لِلْهَواءِ جارًّا لِجِسْـمِي أوْ دافِعًا لَه، لا أدْرِي يَقينًا.. وأصْبَـحَ جَسَـدي أثْقَلَ مِنْ الحَجَـرِ وأضْعَفَ مِنَ الزَّغَـبِ، ومع ذَلِكَ فإنِّي مُضْطَـرٌّ لِمُلاحَقَةِ المَجْهـولِ الغائِبِ عَن ناظِرِي.. لا أدْرِي مـاذا أُطارِدُ ولا بَصيصًـا مِنَ الحَياةِ يُلَـوِّحُ لِي ولَو مِنْ بَعيد.. تَتَدَفَّقُ الرِّمـالُ مِنْ حَوْلي ومِنْ

فَوْقِي ومِنْ تَحْتِي، ولا أَمْلِكُ سِوَى الطَّفْوِ على سَطْحِها وتَجَرُّعِ حَبَّاتِها والنِّزاعِ مَع قُوَّةِ سَحْبِها...

كانَتْ طَبَقاتُ الرِّمالِ سَميكَةً ومُتَراكِمَةً على طُولِ وعَرْضِ الصَّحْراء وفي جَميعِ أَقْطارِها، هذا ما اعْتَقَدْتُ.. إلى أن وَصَلْتُ إلى بُقْعَةٍ دائِرِيَّةٍ مِنَ الرِّمالِ الضَّحْلَةِ المُتَحَرِّكَةِ، والَّتي قد تَراقَصَتْ أمامِي كَفاتِنَةٍ تستثير رَجُلًا لَمْ يَرَ النِّساءَ في حَياتِهِ مِنْ قَبْل.. فَأَخَذْتُ بَعْدَ الفِتْنَةِ أَنْبُشُها في لُهْفَةٍ وعلى عَجَلَةٍ إلى حَدِّ اللُّهاثِ، وكأَنِّي واثِقٌ مِنْ وُجودِ ماءٍ تَحْتَها أو بُروزِ مَخْرَجٍ مِن قَلْبِها.. ولَوْ كُنْتُ أُمًّا تَلْهَثُ لِانْتِزاعِ رَضيعَها الحَيَّ مِنْ تَحْتِ التُّرابِ، ما كُنْتُ لِأَحْفُرَ بِتِلْكَ الهِمَّةِ وذلك الرَّجاء..

والْتَزَمْتُ الإِخْلاصَ في عَمَلِي إلى أَنْ وَصَلْتُ إلى غطاءٍ حَديدِيٍّ كَبيرٍ لَهُ مِقْبَضٌ جانِبِيٌّ.. وعلى الرَّغْمِ مِنَ جَفافِ المُحيطِ المُتَبَجِّحِ إلَّا أَنَّ طَبَقاتٍ مِنَ الصَّدَإِ كانت تَفْتَرِشُهُ وتَكْتَسيهِ، لِتَجْعَلَ فَقط مُهِمَّةَ فَتْحِهِ أَصْعَبَ بِكَثيرٍ مِنْ مَهِمَّةِ النَّبْشِ الَّتي قَدْ سَبَقَتِ الوُصولَ إلَيْهِ..

ولَكِنِ اتَّضَحَ لي أخيرًا أَنِّي أَسَدُ الصَّحَراءِ وناقَتُها مُجْتَمِعانِ.. فَيا أُمَّ حَمْزَةَ المَتْعوسِ، وَلَدُكِ قَدْ فَعَلَها!

الهارِبان

فيروز: لا أُصَدِّقُ أنَّنا قَدْ تَرَكْناها... ماذا سأقولُ لِوالِدَيْها؟

فـارس: تَوَقَّفي عَـنِ الحَديثِ عَن هذا الأمرِ، وابْحَثِـي مَعي عَنِ البابِ الّذي قد دَخَلْنا مِنه.. هل تَذْكُرينَ شَيْئًا؟

– أذْكُرُ أنَّهُ كانَ أمامَنا أرْبَعَةُ أبوابٍ، أو خَمْسَة.

– صحيح، ودَخَلْنا مِنَ البَابِ الّذي في أقصى اليَمين.

– بَل أقْصَى اليَسار.

– هل تُحاوِلينَ تَضليلي؟

– ولِمَ قد أفْعَلُ ذَلِك؟

– لِأنَّكِ تَوَدِّينَ المُكوثَ في تِلْكَ الجَنَّةِ الّتي نَسَجَها خَيالُكِ.

– وكيـفَ أُريـدُ البَقـاءَ بَعْدَ الّذي فَعَلْنـا؟ فالآنَ لا أُفَكِّـرُ إلّا في الهَرَبِ مِـنِ اِحْتِمالِ لِقائِها مَرَّةً أُخْـرَى، أرَأيْتَ كيفَ تَلَبَّـسَ وَجْهُها بالشَّرِّ قبلَ أنْ نَتْرُكَها؟ أرجو أن تُحْبَسَ في هذا المَكانِ لِلْأبَدِ فلا تُلاحِقَنا في المُسْتَقْبَلِ!

– أتَخافينَ مِن تِلْكَ التّافِهَةِ؟ يالَكِ مِن جَبانَة!

– فيروز!

– ما الأمر؟

– هل دَخَلَ «حَمْزَةُ» معنا؟

– لا..

- هل أنتِ مُتَأَكِّدَةٌ؟
- بالطبع مُتأكدة، ولَكِن انتظر!
- ماذا؟
- لَدَيَّ شَكٌّ أنَّ «خَلْدونَ»هو الّذي كان معنا.
- لا أعتَقِـدُ ذَلِـكَ، ولا أعتَقِـدُ أنَّكِ كُنْـتِ مَعي أيضًـا... دقيقة! الآنَ تَذَكَّرْتُ؛ لَمْ يَكُن مَعي سِوَى «شاهين».
- ما هذا العَبَث؟!
- أجل.. فلقد ذَهَبْتِ مع «شيري» وتَرَكْتيني وحدي مَعَ أخيها الأبلَه، أَتَذَكَّرُ ذَلِكَ جَيِّدًا وأَتَذَكَّرُ بِوُضوحٍ أنِّي قد شَـعَرْتُ بِالغَضَبِ الشّديد مِنْكِ حينَها.
- أُقْسِمُ أنَّنا اجْتَزْنا البابَ سَوِيًّا!
- أَتَذْكُرينَ كيفَ كانَ شَكْلُ البابِ؟
- خَشَبِيًّا ولَوْنُهُ بَنَفْسَجِيًّا.
- بَنَفْسَجِيًّا أم أصفَر؟
- بَنَفْسَجِيًّا.
- لا أَتَذَكَّرُ إنْ كُنْتُ قد رَأَيْتُ «حَمْزَةَ» بَعدَ الدُّخولِ أم قَبْلَه.
- أنتَ لَمْ تَرَ حمزة!. هو لَمْ يَكُن مَعَنا من الأساس.
- تعتقدينَ أنَّكِ رَأَيْتِ «خلدونَ»، أَلَيْسَ كذَلِكَ؟
- لا أعرْفُ.
- فَكِّري مَعي واعْتَصِرِي رَأسَكِ جَيِّدًا! فَأَظُنُّ أنَّ هُناكَ لُغْزٌ سَيُساعِدُنا

حَلُّهُ على الخُروجِ مِن هُنا.

– أشْـعُرُ الآنَ بألَمٍ شَـديدٍ في رأسي وأرَى كُلَّ شَيْءٍ من حَوْلي مُشَوَّشًـا، ولا قُدرة لي على التَّفْكيرِ في شَيءٍ حاليا.

– اِسْتَنِدي على جِذْعِ هذه النَّخْلَةِ ثم أغْمِضِي عَيْنَيْكِ واسْتَرْخي قَليلًا، وسأذْهَبُ أنا وراءَ ذَلِكَ الجَبَلِ لَعَلِّي أجِدُ ما نَهْتَدِي بِه.

– تَقْصِدُ جَبَلَ الذَّهَبِ أم جَبَلَ الياقوت؟

– أين هذا وأين ذاك؟

– جَبَلُ الذَّهَبِ على اليَمينِ، وجَبَلُ الياقوتِ على الشِّمال.

– إذًا هو جَبَلُ الذَّهَبِ.

– ولِمَ ليسَ الآخَر؟

– لِأنِّي لا أرَى سِوَى جَبَلًا واحِدًا، على اليَمين..

– رائِع! الآنَ بِإمكانِكَ رُؤيَة جَبَلِ الذَّهَبِ.

– في الحَقيقَةِ لا أرَاهُ إلّا جَبَلًا مِنَ الرِّمال.

***

الأبُ المَكلوم

مَتَى تَكَوَّنَ هذا القبْرُ حَوْلَها؟! فَلَقَدْ كُنْتُ مُمْسِكًا بِيَدَيها مُنْذُ لَحَظاتٍ، وما أفْلَتَّها إلَّا لِأُزيحَ أكْوامَ الثَّلْجَ مِنْ طَريقِنا.. فَكَيْفَ حَدَثَ هذا في طَرْفَةِ عَيْنٍ؟ ولِمَ لَمْ أتَجَمَّدْ مَعَها أنا الآخَر؟ يا إلَهي! فِيمَ قَدْ تَسَبَّبْتُ لِابْنَتِي؟ وما هِيَ إلَّا طِفْلَة لا تَسْتَحِقُّ هذا الألَمَ وذلك الخَوْف.. فَكَيْفَ أُخْرِجُها الآنَ مِن قَلْبِ هذا القالِبِ الصَّلْدِ؟

... اِنْطَلَقْتُ في جَميعِ الجِهاتِ المُمْكِنَةِ كَالطَّائِرِ المَسْلوبِ قُوَّتَهُ المَفْجوعِ على وَلَدِهَ، أبْحَث عَنْ حَجَرٍ يُكَسِّرُ الجَليدَ، أوْ مَجْموعَةٍ مِنْ عيدانِ القَشِّ أُسَلِّطُ عَلَيْها ما تَبَقَّى مِنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ بِعَدَساتِ الثَّلْجِ لعَلَّها تَشْتَعِل!

وأخَذْتُ أسْعَى بَيْنَ طِفْلَتِي المُحْتَضِرَةِ وسَرابِ أشعة الشمس عند منتهى البصر، حَتّى قرسني البردُ فَسَقَطَ فَرْضُ الجهادِ عَنْ جَسَدِي لِيَتَداعَى على الأرْضِ بِلا حَرَكَةٍ، بعد أن تَحَوَّلَتِ الدِّماءُ في عُروقي إلى ثُلوج، وغادَرَتْني الحيلَةُ وتَمَنَّعَ عَنِّي الحَوْلُ...

أَسْألُها إن كانَتْ تَسْمَعُني، ثُمَّ أنْتَظِرُ الإجابَةَ مِنْ عَيْنِها المَيِّتَةِ والأُخْرَى المُرْتَعِبَةِ... ثُمَّ أعودُ لِوُعودِي الكاذِبَةِ بتَحْطيمِ الجَليدِ وانتِشالِها مِنْ صَدْرِ المَوْتِ الّذي قَد أحاطَها بِضُلُوعِه، ثُمَّ آمُرُها ألّا تَخافَ وأنا لا أرَى إلَّا الذُعْرَ المُتَجَمِّدَ في ملامِحِها... ما الَّذي حَدَثَ لَكِ يا صَغيرَتي؟ ومَتَى؟ فَكَأنَّكِ تَمْكُثينَ في تابوتِ الثَّلْجِ هذا مُنْذُ آلافِ السِّنين..

أعِدُكِ أنّي سـأَلْعَقُ الجَليدَ بِلِسـاني طَبَقَةً طَبَقَةً حَتَّى يَذُوبَ، أو سـأَنْفُخُ فيـهِ مِنْ هـواءِ صَدْري المُتأجِّجِ لَعَلَّـهُ يَتبَخَّر.. فَلَيسَ هُنـاكَ أمَلًا مِنْ أنامِلي في تَطْويعِ هذا الزُّجاجِ القاتِل، بعد أن صار جِسْـمي وأطْرافَه أشَـدُّ بُرودَةً مِنه.. ساعِديني يا حبيبتي! فَليسَ هُناكَ شَيْئًا آخَرَ أفْعَلُه.

«ياسـمين! هل أنتِ حَيَّةً؟»... قالت «شـيري» الَّتي قـد ظَهَرَتْ فَجْأَةً مِنَ العَدَمِ، فَصاحَ الأبُ مُسْتَغيثًا لا يُصَدِّقُ ما يَرَى، سائِلًا: «شيري؟! مِنْ أيْنَ جِئتِ؟ ساعِديني مِن فَضْلِكِ أتوسل إليكِ!»

– يا إلهي! ماذا أفعَلُ لَكِ؟ وأينَ أبوكِ؟!

– ألا تَرَيْنَني؟

– اُصْمُدِي قَليلًا حَتَّى أعودَ إلى حَيْثُ جِئتُ كي أبحثَ عن أدَاةٍ أُكَسِّرُ بِها هذا الجَليد... لا تخافي يا عزيزتي، لَن أتأخَّرَ عَلَيْكِ.

– شيري! لِمَ تَتَجاهَلينَني؟

– ما هذا الّذي دَهَسْتُ عَليه؟ أهذا إنسان؟ يا إلهي إنَّها جُثَّةٌ!

– ألا تَسْمَعينَني؟!

– لا أُصَـدِّقُ، هـذا أبوكِ سُـليمان! لَقَدْ دَهَسْـت وَجْهَ أبيكِ، ما أبْشَـعَ مَنْظَرِهِ! كيفَ أصْبَحَ أزْرَقَ فاقِعٌ لَوْنُهُ هكذا؟ يا الله! ما الَّذي قد حَدَثَ له؟

– هذا ليسَ أنا أيَّتُها الحمقاء! لِمَ لا تَرُدِّينَ عَلَيّ؟!

... ورَكَضَـتِ المِسْـكينَةُ مِنَ الِاشْـمِئزازِ بَعِدَ أن كَـسَّرَتِ الجُثَّةَ الزّرْقاءَ تَحْتَ قَدَمَيْها.. لا أعرِفُ هل سَـتَرْجِعُ كما وَعَدَت أم أنَّ الفَزَعَ لَنْ يَسْـمَحَ

لَهـا بِذلِك، ولا أعْرِفُ كيف لَمْ تُلامس كَفِّي خَدَّها بعدما صَفَعْتُها لِتُصَدِّقَ أنِّي مَوْجودٌ...

تَفَحَّصْتُ وَجْهَ الجُثْمانَ المتجمد مِن قَريبٍ لِأكْشِـفَ عن هَوِيَّتِه، ولَكِنَّ الكُسـور والـشُّروخَ كانَـت قَدْ عَبَثَـت بِملامِحِـهِ بِما يَكْفـي لِمَسْـحِ صورَتِهِ الحَقيقِيَّةِ ونَزْعِ صِفَاتِ الإنْسـان مِنه.. كيفَ مَيَّزَتْ قسـمات وجهه لِدَرَجَةِ أنْ يَخْتَلِـطَ عَلَيْهـا الأمْـرُ وتَظُنَّهُ أنا! فما الَّـذي قد رَأَتْهُ في هذا الوَجْـهِ المُبَعْثَرِ وتلك الأجزاء المُحَطَّمة؟.

على أيِّ حالٍ، أنا لا أكْتَرِثُ لِحَقيقَةِ هَوِيَّتِهِ.. فلا يَهُمُّ الآن سِـوَى يَقينِي مِنْ أنِّي حَيٌّ وبِدونِ شَكٍّ، ولا يَعنيني ما تَقولُ تِلْكِ المَجْنونَةُ.. فها أنا أعيشُ وأرى وأسمع وأتَحَرَّكُ وأتَكَلَّمُ.. وحَتْمًا سَأُنْقِذُ ابْنَتي، وحَتْمًا أنا مَوجود.

***

مِنَ صَمتِ الأضرِحَةِ إلى ضَجيجِ الوُحوش

«ما الَّذي يَحْدُثُ هُنا؟!»... كانت صَدمَةُ «خلدون» لا تَفرِقُ كثيرًا عن صَدمَةِ وَليدٍ خَرَجَ مِن بَطنِ أُمِّهِ إلى الدُّنيا لا يَعْلَمُ شَيئًا.

«لا وَقْتَ لِلْحَديثِ الآنَ، يَجِبُ عَلَيْنا الِاختفاء في أيِّ مكانٍ حالًا!»... أجابَهُ «ريان» وهو يَشُدُّهُ مِن ثِيابِهِ حَتَّى كادَ يَقطعها.

– اللعنة!. ما هؤلاء؟!

– هؤلاء يُلاحِقونَنا مُنْذُ وَصَلْنا إلى هُنا.

– وأينَ سَنَخْتَبِئُ؟

– واصِلِ الرَّكْضَ أسْرَعَ مِن ذلِك! وأنا سأقودُكَ إلى داخِلِ الغابَةِ.

– وهل يَخْلو الدَّاخِلُ مِنَ الوُحوش؟

– لا أعْرِفُ.

– لَمْ أسْمَعْ أنْكَرَ مِنْ هذه الأصواتِ طيلَةَ حياتي... تَبًّا لي! ما الّذي جَعَلَني أختارُ الأخْضَرَ اللّعين؟ فَلَقَد كُنْتُ أنْعَمُ بِالهدوءِ ثُمَّ تَمَرَّدْتُ عَلَيْه.

– اِنْتَبِه!. يَكادُ يَلْمِسُكَ..

«لَقَد لَمَسَني بِالفِعل!».... صَرَخَ «خلدون» وهو يضرِبُ على فَخذه الّذي قد تلامَسَ مع أظافر جَروٍ لِأحد الوحوش سَبَقَ القَطيع.

«أسْرِع قَبْلَ أنْ يُقْضَى عَلَيْكَ»... قال «ريان» وهو يجري بِالآخَرِ جانِبِيًّا خلف إحدى الهِضابِ بَعيدًا عن مَسارِ الوُحوش.

– كيفَ اسْتَطَعْتَ أنْ تَنْجُوَ كُلَّ ذلك الوَقْتِ؟!

– اتَّجِهْ يَمينًا... الآنَ!

«أعصابِي لَنْ تَتَماسَكَ أكْثَرَ مِنْ ذَلِك، ولَمْ أعُدْ قادِرًا على الرَّكْضَ»... صاحَ «خلدون» وهو على وشك التَّداعي والسُّقوطِ على الأرض، فأخذ صاحِبُهُ المُتَعَرِّقُ بِيَدَيْهِ قائِلًا: «لَقَدْ أوْشَكْنا على الوُصولِ، اصْمُدْ قَليلًا»

– أتَمْزَحُ مَعي؟ أتِلْكَ الغَابَةُ البَعيدَةُ وَراءَ الجَبَلِ هي ما تَقودُنِي إلَيْه؟ إنَّها عَلى بُعْدِ ثلاثة كيلو مِتراتٍ على الأقَلِّ.. أفَتَظُنُّني قادِرٌ على المُواصَلَةِ لِأكْثَرِ مِنْ ثلاثينَ مِترًا؟

– كُفّ عَنِ التَّلَكُّعِ والتَّصَرُّفِ مِثْلَ الأطْفال!

«أظُنُّ أنَّ ذَلِكَ طَريقٌ مُخْتَصَرٌ خَلْفِيٌّ».. قال «خلدونُ» بعدما تَوَقَّفَ وهو يَشيرُ إلى مَمَرٍّ طينِيٍّ ليس بِبَعيدٍ يختبئ خلف الأشجار.

– ماذا تَقصد؟

– إذا قَطَعْنا ذلك الطَّريقَ مِنْ خِلالِ الوَحْلِ، فَسَنَصِلُ إلى الطَّرَفِ الآخَرِ مِنَ الغابَةِ والَّذي هو أقْرَبُ إلَيْنا مِنَ الَّذي تَسوقُني نَحْوَه على طَريقَةِ جُحا..

– ولَكِنَّ الوَحْلَ سَيُبطِّئُ حَرَكَتَنا كَثيرًا ويَسْتَنْفِدُ أضْعافَ القُوَّةِ الَّتي يَسْتَنْفِدُها الرَّكْضُ مِنَّا...

– لا تُجادِل! فأصواتُهُم تزداد وُضوحًا!

«فَلْنَفْعَلْ إذًا كما اقْتَرَحْتَ أنتَ»... قالَ «ريانُ» بينما يخلعُ حذاءَهُ ويتلعثم، بعدما فقد قُدرَتَهُ على التّفكير وطاقَتَهُ لِلنِّقاش ورَغْبَتَهُ في القِيادَةِ.

أجيجُ بَكر

إنْ كانَـتْ هـذه لُعْبَةً فَلَقَدِ انْتَـصَرْتُ فيها والغَلَبَـةُ لي مُؤَكَّدًا، وإن كان تَنْويمًا فَسـأغْفو إلَى الأبَدِ بِأمْرٍ مِنِّي أنا فقـط.. وإنْ كانَ هذا هو الهولوغرام فَلَقَدْ جَعَلْتُ بِنَفْسي مِنْهُ حَقيقَةً مادِيَّةً ومُجَسَّمَةً، ولِيَ السَّبْقُ في ذلك!

ولَمْ أعُـدْ على أيِّ حالٍ مُهْتَمًّا بِحَقيقَةِ مـا أعيشُ، فَلَقَدْ ذَهَبَ عَنِّي الكَبَدُ وزالَ عَنِّـي الوَصَـبُ وصِرْتُ بِـلا إحْسـاسٍ.. ولا حَقيقَة قد تَصْنَـعُ فَرْقًا الآن، بينما أتَناغَمُ بِشَـكْلٍ مُفاجِئٍ مع هـذه البيئَةِ وأتآلَفُ مع مُحيطِها، حتى ما عُدْتُ أذكر كيفَ كُنْتُ مِنْ قَبْلِهِ...

والآن قـد زالَ الألَمُ وانْتَهَى الخَوْفُ وتَحَجَّرَتِ الدُّموعُ، بَعْدَ أنْ تَبَلْوَرَتْ أحْشـائي وتَصَخَّـرَتْ أعْصـابِي وتَحَوَّلَتْ لِلْأبْخِـرَةِ والغـازاتِ أنْفاسي... وأصْبَحْـتُ جُزْءًا مِن تكوينِ صَخْرِ البُرْكانِ فأضْحَى دِمي أكْثَرَ غَلَيانًا مِنَ حِمَمِـهِ، وأمْسَـى الرَّمادُ يَجْري في فَمِي جَـرْيَ اللُّعابِ، وصَـارَ عَرَقِي فَوَّارًا يَرْشَحُ ويَنْضَحُ على هيئةِ صُهارَةٍ مُتَدَفِّقَةٍ من كُلِّ خلايا جَسَدي...

والآنَ صِرْتُ أتَّخِـذُ مِـنَ الماءِ عَـدُوًّا، وأتَلَذَّذُ بِالحَرْقِ والإذابَةِ وأشْـتَهي الجُلودَ واللُّحومَ، وأنْشَى رائِحَةَ عَفَنِ البَيْضِ وأبتَهِجُ بِالأحْمَر والبُرْتُقالِيّ... وهـا أنا أتَغَيَّظُ وأفورُ بِأعْلَى صَـوْتي، وأرَى القَتْلَ حَقًّا لي، والغَضَبَ هُو ما خُلِقْـتُ مِـن أجْلِه... أنـا الآنَ أُقِدُ ولا أُسْـتَوْقَدُ وأحْـرِقُ ولا أُحْرَقُ، ولَنْ أموتَ مُتَفَحِّمًا أو مُذابًا.. بل لَنْ أموتَ أو أحْيَا..

فَسأظَلُّ هُنا في هذا الحَميم أسْتَحِلُّ السَّفْعَ وألْظَى، وأتَشَفَّى في الأرواحِ الصَّارِخَةِ ثُمَّ أصْبو لِلْمَزيدِ، ولَنْ يُؤذِيَني الضّميرُ مُجَدَّدًا... فَلَنْ أتَّصِفَ بعد ذَلِكَ إلَّا بِالْبَطْشِ والإرْهاب، وسَأدَعُ الحُبَّ عَنِّي، ثُمَّ أضَعُ الحُزْنَ جانِبًا... فلا أجيجَ لِلْشُعورِ بَعْدَ أنْ أصْبَحْتُ أنا الأجيحُ، ولا خَجَلَ بعدَ الآن مِنَ الخِيانَةِ، ولا نَدَمَ عَلَى الكَذِبِ أو الفاحِشَةِ... لا خَوْفَ مِن سَوابِق الِاحْتِيالِ وشهادَةِ الزُّورِ، ولا عَذَابَ للوجدانِ بعدَ أن طَرَدتُ زَوْجَتي، ولا بُكاءَ ولا أسَفَ على طِفْلَيّ ولا اعْتِذارَ عن الجفاءِ لِوالِدَيّ... فَلَقَدْ تَحَرَّرْتُ في الخُلْدِ مِن قيودِ الإنْسانِيَّةِ وتَسَلُّطِ الرُّوحِ ووساوِس الخَيْرِ.. ولَنْ أسْمَعَ بعد اليَوْمِ إلَّا ضَجِيجِي، ولا شَيْءَ غَيْرَه.

***

اِجتِماعُ الأخَوَينِ

«أيْنَ ذَهَبْتِ وتَرَكْتِينِي؟»... قال «شـاهين» مُعاتِبًا أُخْتَهُ الّتي قد غابَتْ عَنهُ لِوَقْتٍ غير معلوم.

«الحمدلله! أنتَ على قَيْدِ الحَياةِ، لَقَد ظَنَنْتُ أنِّي فَقَدْتُكَ»... قالَت وهي تُعانِقُهُ وتَصْرُخُ وتَقفز من السّعادَةِ.

– بل أنا الّذي ظَنَنْتُ أنَّ مَكْروهًا قد حَدَثَ لَكِ، وبَحَثْتُ عَنْكِ طَويلًا مَع «رنا» إلى أنْ فَقَدْتُ الأمَلَ في إيجادِكِ.. فأيْنَ كُنْتِ؟

– رَنا؟! هل رأيْتَها؟

– أَلَمْ تَكُن مَعَنا طوالَ الوَقْتِ مُنْذُ دَخْلنا مِنَ الباب؟

– لا لَمْ تَكُن مَعَنا..

– كيف ذلك؟!

– أيْنَ هِيَ الآنَ على أيِّ حالٍ؟

– تَسْبَحُ في يَنْبوعِ التَّماسيح.

– خُذْني إلَيْها إذًا!

– أخْبِريني أوَّلًا؛ أينَ كُنْتِ؟

– يـا إلهـي! لقد نَسـيتُ أمْرَ «ياسـمين».. اِبْحَـثِ مَعي فَورًا عَـنْ أداةٍ نُحَطِّمُ بِها الجَليدَ، أو شُعْلَةٍ نُذيبُهُ بِها.

– أيُّ جَليدٍ؟. وما خَطْبُ «ياسمين»؟ أفرأيْتِ «سُليمان»؟

– إنهـا عالِقَـةٌ داخِلَ مُكَعَّـبٍ مِنَ الثَّلْـجِ خَلْفَ بابٍ زُجاجِـيٍّ أزْرَقٍ.. وأبوها قَدْ قَتَلَهُ الصَّقيعُ.

– هل مازالَ ذاك البابُ مَوْجودًا؟

– أجل، وراءَ النَّهْرِ، فلْنُسْرِعْ إلَيْها الآن قبلَ أنْ تَلْحَقَ بِوالِدِها وتَموتَ.

– دقيقة!

– ماذا تَفْعَلُ؟. ما هذا الَّذي تُخَبِّئُهُ وراءَ ظَهْرِكَ؟

– إنَّهُ السَّيْفُ.

– أيُّ سَيْفٍ؟

– السَّيْفُ السِّحْرِيُّ الَّذي قَطَّعْتُ بِهِ «فارِس».

– ماذا؟!. مَتَى فَعَلْتَ ذَلِكَ؟

– كَيْفَ نَسيتِ؟ فلَقَد قَتَلْتُهُ أمامَ عَيْنَيْكِ.

– بل هو الَّذي قد ألْقَى برأسِـكَ على الصَّخْرَةِ، إلى أنْ نَزَفْتَ وتَوَقَّفْتَ عَـنِ التَّنَفُّـسِ حَتَّـى ظَنَنْتُ أنِّي قَـدْ شَـهِدْتُ مَوْتَكَ، ثُمَّ فَـرَّ مَـعَ أُخْتِهِ وأنا أتَوَعَدُهُما بِالْقَتْلِ.

– مـا هذا الَّذي تَقولـين؟! فَلَقَد خَنَقْتُهُ وقَطَّعْتُهُ ثُمَّ دَفَنْتُهُ بَيَدَيّ، أُقْسِـمُ على ذلك!

– وأينَ دَفَنْتَهُ؟

– أُنْظُرِي أسْفَلَ قدَمَيْكِ!

– أهو هُنا؟

– أجَلْ.. أُنْبُشِي قَبْرَهُ كَي تَتَأكَّدِي مِنْ صِحَّةِ كلامِي!

– بِالطَّبْعِ لَنْ أفْعَلَ ذَلِكَ! لا أُريدُ أنْ أرَى مَزيدًا مِنَ الأمْوات.

بِئرُ حَمزَة

ظَهَـرَ لي مِنْ تَحْتِ الغَطـاءِ الحَديدِيِّ الصَّدِئِ هُوَّةٌ كَبيرَةٌ لا يُمْكِنُ تَحْديد عُمْقِهـا... تُـرَى هل فيها مَعْبَرٌ جانِبِيٌّ لِأَرْضٍ أُخْـرَى أو فَتْحَةٌ خَلْفِيَّةٌ لِعالَمٍ مُوازٍ!

هل أَنْزِلُ أم أتمَهَّل؟ فَأَخْشَى أنْ يَكونَ قَعْرُها الغَائِبُ دَليلًا على اتِّصالِها بِمَرْكَـزِ الأرضِ... وحَتّـى إنْ تَجَرَّأْتُ وقَرَّرْتُ النُّـزولَ مِن خِلالِها، فَكَيْفَ سـأفْعَلُ ذَلِـك.. فَلا أعْتَقِدُ أنَّ في حَوائِطِهـا الدَّاخِلِيَّةِ ما تَثْبُـتُ قَدَمايَ بَيْنَ ثَناياهُ ولا مَا تَتشـبث به أصابِعِي، فَيَبْدُو أنَّها مُبَطَّنَةٌ بِرِمالٍ كالحَريرِ.. ورَغْمَ ذَلِكَ، فَإنَّها تُحْدِثُ صَوْتَ قَرْعٍ قَوِيٍّ حِينَ أدُقُّ عَلَيْها بكَفّي وكأنِّي أدُقُّ على الصَّفيح...

آمَـلُ أنْ تَكونَ بِئْرًا ولَو كانَتْ بِئرَ برهـوت، وإنْ كانَتْ كَذَلِكَ جَافَّةً.. فَسَـتكون لي عـلى الأقَـلِّ فُرْصَـةُ التَّنْقيبِ عَـنْ رائِحَةِ المـاءِ، أو العُثورِ على القَطَـراتِ الوَليدَةِ.. فالـدَّمُ على وَشْـكِ الِانْفِجارِ مِن بَيْنِ شُـقوقِ حَلْقي، وشَفِتايَ قد أوْشَكَتا على التَّساقُطِ كَأوراقِ الخَريفِ، بل إنَّ أوراقَ الخَريفِ أكْثَرَ نضارَةً وشبابًا مِنْ أنْسِجَةِ جِسْمي حالِيًا.

.. تَدَلَّيْـتُ بِرِجْلٍ واحِدَةٍ مُجْتاحًـا خَواءَ تِلْكَ الدَّائِرَةِ السَّـوْداء المُبْهَمَة، وتأرْجَحْـتُ بِهـا عِنْـدَ حافَّةِ فيهِ الحُفْـرَةِ بينـما أُرْتَكِزُ على السَّـطْحِ بِجِذْعِي

وذِراعَـيَّ مـع رُكْبَتِي اليُسْرَى.. فشَـعَرْتُ بِحَرارَةٍ قَوِيَّةٍ تَهُـبُّ مِنْها ورائِحَةٍ تُشْبِهُ رائِحَةَ صَهْرِ المَعادِن، تُرَى ما الَّذي يَحْدُثُ بِالأسْفَلِ؟

هَـل مِنَ الحُمْـقِ أنْ آمَنَ على نَفْسِي في أحشـاءِ هـذه الأنبوبَةِ؟. لا، بَل إنَّ الحُمْقَ الحقيقِيَّ هو انْتِظارُ النَّجاةِ عُرْضِ اليابِسَـةِ؟ أجل! فَمِمَّ أخافُ؟ وعَـلامَ أخـافُ؟! أفَلَيْسَ مِنَ الحِكْمَـةِ أنْ أهْرَبَ لِمصيرٍ مَجْهـولٍ مِنْ مَصيرٍ بِالهـلاكِ مَحْتوم، فضلًا عن الاستسـلام لِمَـوْتٍ مُؤَكَّد؟ فَوالله مـا أُخادِعُ إلَّا نَفْسي بالْبَحْثِ ولا أُرْهِقُ إلَّا روحِي بِالأمَلِ!.

فسأنْزَلِقُ الآنَ فيها وبِدونِ تَفكير، وليَحْدُثْ ما يَحْدُثْ!

***

دَوّامَةُ فارس

تَـرَى أُخْتـي الأحجـارَ مِـنَ الألمـاسِ ولا أراهـا إلَّا أحْجـارًا صَخْرِيَّةً مُغَبَّرَةً، وتَصِفُ الجَبَلَ الرَّمْلِيَّ بِالذَّهَبِيِّ والشَـجَّرَ البالِي بَالبَنَفْسَـجِيِّ، وتَرَى الفراشـاتِ الصَّفْـراءَ وَرْدِيَّةً والأنهارَ الجَافَّـةَ ألْبانًا بيضاءَ.. غَيْرَ أنَّها تَشُـمُّ عُطَـورَ الجَنَّةِ وأنا لا أشُـمُّ إلَّا الغُبارَ.. فَـما خَطْبي وما عَيْبي؟ أأحْمِلُ نَفْسًـا سَوْداءَ؟ أم أنَّنا قَدْ دُفِعْنا إلى نَفْسِ بُقْعَةِ الأرْضِ ولَكن لِكُلٍّ مِنَّا زمانَهُ؟

أخذتُ في طريقي أُكَلِّمُ الأرض وأسأل الفَضاءَ حَتَّى وَصَلْتُ إلى جَبَلِ الرمال.. كُنتُ أسـعى إلَيْهِ بِهِمَّةٍ على الرَّغْم مِن شُـعوري الشّديد بِالخَوفِ مِـنْ عالَمِ العَجائِبِ هذا، ويَأسي مِن أيَّ عَلامَـةٍ لِلْأَمَلِ أو النَّجاةِ مِنْ قَريبٍ أو بَعيـد، وإيـماني القَوِيِّ بِعَدَمِ وُجودِ أي جَدْوَى مِـنْ المُكابَدَةِ والمُحاوَلَةِ.. فَنَحْنُ على أيِّ حالٍ هالِكونَ لَا مَحالة...

.. لَمْ يَكُـنْ مِـنَ السَّـهْلِ تَسَـلُّقُ جَبَلًا يَفْتَرِشُـهُ رَمْلٌ يَجْـري جَرَيان الماء، وكذلك لَمْ يَكُنِ الأمْرُ مُسْتَحيلًا حَيْث أنَّهُ ليسَ عالِيًا جِدًّا... فاستطعتُ أن أصِلَ أخيرًا بَعْدَ عَديدٍ مِنَ المُحاوَلاتِ والوُقوعِ والإنْزِلاقِ إلى قِمَّتِه، ولكن ليس قبل أنْ أصْطَبِغَ بِلَوْنِهِ وأتغرغرَ بِتُرابِه...

نَظَـرْتُ مِنْ الأعْـلَى في كُلِّ اتِّجاهٍ حَوْلَهُ وأسْـفَلَهُ، ولَكِنِي لم أرَ حُفرَةً ولا خَنْدَقًـا، ولا مَدْخَـلًا أو مَخْرَجًـا... إلى أنْ لَحَظْـتُ بَعْدَ وَقْـتٍ قَصيرٍ حَرَكَةً واضْطِرابًـا مِن بَعيد، إذ كانَ هُناكَ جُزْءًا مِـن الأرضِ يَدورُ مُبَعْثِرًا لِلرِّمال والحَصَى مِنْ حَوْلِه..

اتَّجَهْتُ إلَى الدَّوَّامَةِ الرَّمْلِيَّةِ قاطِعًا مَسافَة بَعيدَة جِدًّا فيما لا يَتَعَدَّى الدَّقيقَتَيْنِ.. لا أفْهَمُ كَيْفَ ومَتَى وَصَلْتُ إلَيْها، وكَأنَّ جَسَدِي قَد طارَ بِمُجَرَّدِ أنْ تَلَقَّى الأمْرَ مِنْ مُخِّي بِالسَّيْرِ نَحْوَها..

وَقَفْتُ أُشاهِدُها مِنْ قَريبٍ وأنا لا أُفَكِّرُ سِوَى في القَفْزِ مِن خِلالِها، حَتَّى سَمِعْتُ قَرْعًا يَصْدُرُ مِن دَاخِلِها، وكأنَّ في باطِنِها جِدارًا يُحاوِلُ أحَدُهُم اسْتِكْشافَهُ أو خَرْقَهُ.. تَمادَيْتُ في الاقْتِرابِ مِنها لَعَلِّي أرَى إنْسانًا أو حائِطًا أو طَريقًا، إلى أن انْزَلَقْتُ عند حافتها واقِعًا على وَجْهي وكَفَيَّ حَتَّى كِدْتُ أُسْحَبُ إلى داخِلِها...

فَدَفَعْتُ نَفْسي بَعيدًا عَنْها وأنا أُحاوِلُ مُقاوَمَةَ جاذِبِيَّتَها قَدْرَ الإمْكانِ، بينما أتَمَرَّغُ على الأرْضِ وأقْبِضُ على شَلَّالاتِ التُّرابِ الجارِيَةِ بِأصابِعِي وأسْنانِي... تَشَنَّجَتْ عَضَلاتُ جَسَدِي جَميعُها وأوْشَكَ قَلْبي على الخُروجِ مِن مكانِه، إلى أنْ خَرَجْتُ أخيرًا مِن مُحيطِ هالَتِها راكِضًا رَكْضَ الْغزلانِ مِنَ السِّباعِ، وأنا لا أدْري كَيْفَ نَجَوْتُ مِنْها..

شَرَعْتُ في العَوْدَةِ إلى الجَبَلِ مُجَدَّدًا، ولَكِنَّ المَسافَةَ في طَريقِ العَوْدَةِ لَمْ تُقْطَعْ في نَفْسِ المُدَّةِ الزَّمَنِيَّةِ الَّتي قَطَعْتُها مِنَ الجَبَلِ إلى الدَّوَّامَةِ، بَل لَمْ تُقْطَع مِنَ الأساس.. أرْكُضُ وأرْكُضُ ولَكِنِّي لا أصِلُ ولا حَتَّى أقْتَرِبُ... لقد جِئْتُ إلى هُنا في دَقيقَتَيْنِ أو أقَلّ، والآنَ بَعْدَ ما يُقَدَّرُ بِساعاتٍ مِنَ الجَرْيِ لا أتَحَرَّكَ مِنْ مِكاني!

***

الحُفرَة

«كانَ ذلـك وَشـيكًا جِدًّا، فَلَوْلا الوَحْـلُ لَكُنَّا في بُطونِهِـمُ الآنَ».. قالَ «خلدون» مُفْتَخِرًا بِفِكْرَتِهِ مُخْتالًا بِنَفْسِهِ.

«سـنلْتزم أماكِنَنَا وَراءَ تَلْكَ الشَّجَرَةِ حَتَّى يَنْسَـوا أمْرَنا»... رَدَّ «ريانُ» مُتَجاهِلًا ضرورَة الإثناء عليه وشُكْرِهِ على إنقاذ حياته.

– ثُمَّ ماذا؟

– ثُـمَّ سَـنَحْفُرُ حُفْرَةً كَبـيرَةً قَـدْرَ المُسْـتَطاعِ، ونَمْكُثُ فيها مُسْـتَتِرينَ بِأوْراقِ الشَّجَرِ وأغصانِه.

– وماذا بعد ذلك؟

– لا شيء.

– أنتَ تَقْتَرِحُ إذًا أنْ نَظَلَّ هُنا إلى الأبَدِ.

– فَقَط حَتَّى تَنْصَرِفَ تِلْكَ المَخْلوقاتِ بِلا رَجْعَة.

– وفي أثْنـاءِ انْتِظارِنـا لِانْصِرافِها، أَلِـنْ تَأتيَ مَخْلوقاتٌ أُخْـرَى؟ أو بعدَ اِنْصِرافِها، كيفَ تَتَوَقَّعُ أَلَا تَعودَ مُجَدَّدًا؟ فما هذه السَّذاجَة؟!

– ماذا تُريدُنا أن نَفْعَلَ إذًا؟

– نَبْحَثُ عَنِ أيِّ مَخْرَجٍ قد يَرْمِي بِنا إلى نُقطَةِ البِدايَةِ.

«لَنْ أتَحَرَّكَ مِن مكاني هذا، ولَنْ أعْبُرَ مَزيدًا مِنَ البوَّاباتِ المَجْهولَةِ»... صَرَّحَ «ريان» بِكُلِّ عَزْمٍ وثَباتٍ عَن نِيَّتِهِ وهو يجلِسُ على الأرضِ آمِـلًا أن

تَسْحَبُهُ إلى داخِلِ أحشائِها.

- هل جِئْتَ إلى هُنا وَحْدَكَ؟

- اخْفِضْ صَوْتَكَ!

- صَوْتُـكَ أعْلَى مِنْ صَوْتي!. أجِب سُـؤالي؛ هـل كانَ يُصاحِبُكَ أحَدٌ قَبْلَ أن أَلْتَقيكَ؟

- أجل، كانَت مَعي خطيبَتي.

- وأينَ هي الآن؟

- لا أعْلَمُ.

- كيفَ افْتَرَقْتُما؟

- تَوَقَّفْ عَنِ الكلام! سَيَسْمَعونَنا أيُّها الثّرثار.

- أخْبِرْني كَيْفَ تَخَلَّصَتْ مِنْكَ لِأفْعَلَ مِثْلَها!

- عَظيم! لقد قَفَزَت في يَنْبوعِ التَّماسيح، أرجوكَ أن تفعلَ مثلها!

- حَقًّا؟! يالِها مِنْ مَجْنونَة! لا شَـكَّ أنَّهـا في عِدادِ المَوْتَى الآن.. ألا تُريدُ البَحْثَ عَنْها؟

- أأبْحَثُ عَنْها أم أهْرَبُ مِن تِلْكَ الكائِنات؟

- يالَكَ مِن جَبانٍ!

- لَقَـد تَمادَيْـتَ مَعـي كَثـيرًا.. اِلْزَم حَـدَّكَ! فَنَحْنُ لَسْـنا أصْدِقـاءَ مِنَ الأساس.

- هذا مِن حُسْنِ حَظِّي.

- ما الَّذي جاءَ بِكَ إلَيّ على أيِّ حالٍ؟

- سُوءُ حَظِّي.
- فَلْتَعُدْ إذًا إلى الطَّريقِ الَّذي أوْصَلَكَ إلى هُنا ودعني وشأني!
- لَيْتَني أسْتَطيع! فلقد اخْتَفَى كما اخْتَفَى الَّذي قَبله..
- وأينَ وَجَدتَهُ مِنَ الأساس؟
- حاوَلْتُ اِنْتِزاعَ سَيْفٍ يَبدو مَلَكِيًّا مِن جِذعِ نَخْلَةٍ، فَتَزَلْزَلَتِ الأرْضُ واحْتَرَقَتِ النَّخْلَةُ وتَحَوَّرَ المَشْهَدُ كُلُّهُ مِنْ حَوْلي، ثُمَّ ظَهَرَ لِي خَمْسَةُ أبواب.. دَخَلْتُ هارِبًا مِنَ الحَريقِ عَبْرَ أوْسَطِهِم.
- ولِماذا أرَدْتَ السَّيْفَ؟
- تَوَقَّعْتُ أنْ يَكونَ سَيْفَ الحاكِم.
- وإذا أخَذْتَهُ، أسَتُصْبِحَ حاكِمًا؟
- ولِمَ لا؟ فَلَعَلَّ القادِرَ على امْتِلاكِهِ يكونُ هو الفائِز ويَحْظَى بِالجائِزَةِ في الأخير!
- أكانَ البابُ الَّذي دَخَلْتَ مِنْهُ أخْضَرَ؟
- أجَل.
- هل تَسْتَطيعُ الذّهابَ بِنا إلى إليه؟ فهو الَذي أدْخَلَني أنا و»رَنا» إلى هُنا.
- ألَمْ أقُلْ لَكَ مُنْذُ قَليلٍ أنَّهُ قَدِ اخْتَفى؟ هل هُناكَ خَطْبٌ في أُذُنَيْكَ أو رأسِك؟
- دُلَّني فَقَط إلى مَكانِهِ ولا شأنَ لَك!
- وما الَّذي سَتَفْعَلُهُ في مَكانِ البابِ بَيْنما هو غائب؟

– سأنْتَظِرُه حَتَّى يَظْهَرَ مُجَدَّدًا.

– عُـدّ إذًا إلى حَيْـثُ الْتَقَيْتـكَ في ضِيافَـةِ الوُحوشِ.. فـذاكَ هو مكان الباب الأخضر.

– بِئْسَ يَوم تَعَرَّفْتُ عَلَيْكِ فيهِ يا «رنا»!

– متى سَنَبْرَحُ مَكانَنا هذا؟

– أظُنُّهُـم قَدْ ابْتَعَدوا.. فيُمْكِنُنـا الآنَ التَّوَغُلُ بِحُرِّيَّةٍ داخِلَ الغابَةِ لِحَفْرِ الحُفْرَةِ في المَكانِ المُناسِبِ قَبْلَ أن يَعودوا..

***

اِختِفاءُ الأموات

«لَقَـد تَرَكْتُهـا هُنا، فأيـنَ ذَهَبَتْ وكيـفَ تَحَرَّكَتْ؟ حَتَّى جُثَّـة أبيها قد اخْتَفَتْ!»... قالَت «شـيري» بينما ترتجف من الـبرد وتصرُخُ مِنَ الخَوف، فَـرَدَّ عليها أخوها المُرْتَعِشُ وهو يُحـاوِلُ ضَمَّها إلى صَدْرِهِ والتَّحَرُّكَ بها إلى حَيـثُ لا يدري قائِلًا: «فَلْنَعُدْ مِنْ حَيْثُ جِئْنا قبـلَ أنْ نَتَجَمَّدَ»... ولَكِنَّها قد أجابَتْهُ بالتَّمَرُّدِ والعِصيانِ وهي تَسْحَبُ نَفسَها مِن تَحْتِ ذِراعِهِ وتَصيحُ قائِلَة: «بِالطَّبْعِ لا! لا أسْـتَطيعُ تَرْكَها الآنَ بَعْدَ أنْ وَعَدْتُها بِالمُسـاعَدةِ. هي لا تَزالُ طِفْلَةً لا تَسْتَحِقُّ تِلْكَ المُعاناة، فَيَجِبُ أن نُواصِلَ البَحْثَ عَنْها»

«أتَظُنِّـينَ بِالفِعْـلِ أنَّها لا تزال على قَيْـدِ الحياةِ؟»... نَهَرَهـا وهو يَنفَجِرُ غَيْظًا ويَنْفُخُ تَعَبًا.

– أكادُ أُجَنُّ، كيفَ انْتَقَلَتْ مِنْ مكانِها؟!

«رُبَّما جاءَ أحَدٌ وأخْرَجَها»... قالَ وهو يَهُزُّ كَتِفَهُ بِفُتورٍ ولامُبالاةٍ، غَيْرَ مُقْتَنِعًا بِما يقول.

– خُذني إلى «رنا» بعد أن نعود لِلأرض البنفسجية، لَعَلَّها تَعْرِفُ شَيْئًا.

– مَن؟

– مـا خَطبُـكَ يا شـاهين؟! أمـا قُلْـتَ أنَّ «رَنـا» تَسْـبَحُ في يَنْبـوعٍ مَعَ التَّماسيح؟

– «رنا» خَطيبَةُ «ريان»؟

– أجل.

- هل كانَتْ مَعَنا؟
- أتُريدُ أن تُفْقِدَني صوابي؟
- أنا لا أعْرِفُ عَمَّ تَتَحَدَّثينَ، ولَمْ أرَ «رَنا» ولا يَنْبوعَ ولا تَماسيح.
- لِمَ تَفْعَلُ ذلك؟!
- أفْعَلُ ماذا؟ لا بُدَّ أنَّ هُناكَ خَطْبٌ ما في ذاكِرَتِكِ!
- ذاكِرَتي أنا؟!. هَل فَقَدْتَ عَقْلَكَ أم أنَّكَ تُحاوِلُ خَلْطَ الأمور عَلَيّ؟
- ولِمَ سأرْغَبُ في فِعْلِ ذَلِكَ؟. أقْسِمُ أنِّي مُشَوَّشٌ ومُشَتَّتٌ مِثْلكِ!
- أنا لَسْتُ مُشَوَّشَةٌ أو مُشَتَّتَةً، المُشْكِلَةُ في رأسِكَ أنتَ. فيَبْدو أنَّ هذا المَكانَ هو السَّبَبُ في دَفْعِكَ لِلْجنون.
- لا أفهَمُ، عَمَّ تَتَحَدَّثين؟!

***

سُقُوطُ حَمزَة

وكأنِّي أنْزَلِـقُ على سَـطْحِ صَدَفَةِ الحلزون؛ سَـقَطْتُ بِحَرَكَةٍ دَورانِيَّةٍ في دَوَّامَةِ الهاوِيَةِ الَّتي قد ابْتَلَعَتِني بِأَمْرٍ مُباشِرٍ مِنِّي.. لا أدْري مَتَى سـأَصِلُ أو إلى أيْنَ.. وفَقَدْتُ الإحْسـاسَ بالزَّمَنِ والقُدْرَةَ على تَحْديدِ الِاتِّجاهِ، ولَمْ أعُدْ حَتَّى أُفَرِّق بَيْنَ الحَياةِ والمَوْتِ...

جَعَلَنـي الدُّوارُ أتَقَيَّأُ في طَريقِ السُّـقوطِ الحُرِّ هـذا، حَتَّى كادَتْ مِعْدَتي تَخْـرُجُ مِـنْ مكانِها وأحاطَـتْ بي عُصـارَتي الهَضْمِيَّةُ كَحَلَقـاتِ زُحَل.. ثُمَّ بَـدَأَت أطْـرافي تَنْخَلِعُ وأجْزائِـي تَنْفَصِلُ ومُكَوِّنـاتي تَتَبَعْثَـرُ، وكأنِّي خَلِيَّةٌ دَمَوِيَّةٌ تُفْحَصُ داخل جِهازِ الطَّرْدِ المَرْكَزِيِّ...

أما كَانَتِ الصَّحْراءُ أخَفَّ وَطْأَةً، والجَفافُ أقَلَّ قَسْـوَةً؟. فما هذا الَّذي قـد فَعَلْتُهُ في نَفسي؟ لِمَ قَفَزْتُ في هذا النَّفَقِ العَمودِيِّ وأنا لا أعْرِف إلى أينَ يَنْتَهي، أو إذا كانَ يَنْتَهي؟.

ولِمـاذا لا أمـوتُ؟ رغمَ أنَّ المَوْتَ لا يزال يَخْطـو بِثُقْلِهِ على خَدِّي حَتَّى جَحَظَـتْ عَيْناي، مُنْذُ فَتَحْتُ الباب الأصفر لَه... فَماذا تَنْتَظِرُ روحِي أكْثَرَ مِـن ذَلِـك؟ ولِمَ لَمْ تُطْـرَدْ مع أشْـلائِي في هذه الغَسَّـالَةِ فَتَهجر هذا الجَسَـدَ لِتنجوَ؟

... وأخيرًا بعدَ طولِ سَـفَرٍ وعلى بُعْدِ آلافِ الأمتار، اِرْتَطَمْتُ بِسَـطْحٍ حَدِيدِيّ أشَـدّ سُـخونَةً بِكَثيرٍ مِنَ سَـطْحِ مِكْـواةٍ على دَرَجَةِ حَـرارَةِ مِئَتَيْنِ

وعِشرين.. وكانَ يَنْعَكِسُ على ذلك السَّطْحِ شَيءٌ مِن ضَوْءٍ بُرْتُقالِيّ يَتَسَرَّبُ مِن خِلالِ فَتْحَةٍ جانِبِيَّةٍ...

حاوَلْتُ رَفْعَ خَدِّي الأيسر الَّذي كانَ قَدِ الْتَصَقَ بِالسَّطْحِ المُتَوَهِّجِ كَعِلْكَةٍ في باطِنِ حِذاءٍ، أو كَقِطْعَةٍ مِنَ البلاستيك مَسَّت صاجَ الفرْنِ.. فعَلَتْ رَأسي بِدونِ جِلْدِ الجانبِ الأيسر من وجهي بِأكمله، وكَثيرٍ مِنْ لَحْمِهِ كذلك.. فلقد هَجَرَني خَدِّي مُضْطَرًّا لِيَتَّخِذَ مِنَ السَّطْحِ الحَدِيدِيِّ مَسْكَنًا جَديدًا له...

ولا أدْري ما الَّذي قد تَبَقَّى في جِسْمي بَعْدَ أنْ تَفَكَّكْتُ في طَريقِ نُزولي، كَلُعْبَةِ طِفْلٍ فَضولِيٍّ أو عَروسَةِ فتاة غاضِبَةٍ.. أعُدْتُ أمْلِكُ مِنْ جَسَدِي شَيْئًا؟ فها أنا أرى جميعَ أطْرافي السُّفْلِيَّةِ والعُلْوِيَّةِ الَّتي قد تَزامَنَ وُصولُها مع رأسي، مُسْتَقِرَّةً بِجانِبي تَحْتَرِقُ، أسْتَنْشِقُ روائِحَ شَوْيِها وأسْمَعُ حَسيسَ حَرْقِها.. وحينَ أبْحَثُ عَن جِذْعي لا أجِدهُ.. أحَرِّكُ رَقَبَتِي فلا يَتَحَرَّكُ رَأسي، فأفْهَمُ أنَّها قد ذَهَبَتْ هي الأُخرَى مع ما ذَهَبَ.. حَتَّى إنَّ الألَمَ قَدْ مَلَّ مِنِّي وذهب في طريقٍ آخِر...

... ولَكِنَّ الشَّيْءَ الوَحيدَ المُؤَكَّدَ لي هو أنَّ رأسي لَمْ يَتْرُكْني ويَذْهَبْ مِثْلهم، فها أنا أُفَكِّرُ وأرى وأسْمَع وأشُمّ، وأتَنَفَّسُ الهَواءَ الحارَّ وأبْلَعُ اللُّعابَ السَّاخِن.. ولَكِن لا أعلم ما الَّذي يَحْمِلُ رَأسي وكيْفَ بَقِيَ بِلا جَسَد!. أخْشَى أنْ تَكونَ عَيْنَاي مُسَخَّرَتَيْنِ كالكواكِب، وأُذُنَايَ مُعَلَّقَتَيْنِ كَالسُّحُبِ.

لم يَعُـد أمامي الآن سِـوَى الاسْتِسْـلامِ لِلطَّفْوِ مُشَـتَّتَ الأجْزاء، إلى أن أصْطَـدِمَ بِسَـطْحٍ آخَر تَسْـتَقِرُّ عَلَيْهِ روحي ثُـمَّ يَتَراكَمُ فَوْقَها مـا تَبَقَّى مِنْ لَحْمِي وعِظامِي..

***

في أرضِ الثّلج

«مَتَـى اخْتَفَى ذاكَ اللَّعين؟ تَبًّا! أحُبِسْـنا هُنا؟»... قالَ «شـاهينُ» وهو يَتَلْتَفَّتُ حولَهُ كَالمَجْنونِ بَحْثًا عَنِ البابِ الزُّجاجِيِّ.

«سَـيكونُ ذَلِكَ مَوْتي الأكيد، فَلا قُدْرَةَ لي على تَحَمُّلِ هذا البَرْدِ أبَدًا»... رَدَّت أُخْتُهُ وهي تَنْكَمِشُ على نَفْسِها وتَتَقَوْقَعُ داخِلَ ثِيابِها.

– أعْتَقِدُ أنِّي قد بَدَأْتُ الآنَ أفْهَمُ ما يَحْدُثُ مَعَنا؛ لَمْ يَكُنْ مِنَ المُفْتَرَضِ أنْ أدْخُلَ مَعَكِ إلى هُنا، فَلَقَدِ عَبَثْنا مع المَتاهَةِ وأخْلَلْنا بِالقواعِد.

– أيُّ قواعِد وسط ذلك الضَّياع؟

– لا يَصِحُّ أنْ يَتَدَاخَلَ مَسارُ قَوْسٍ مع آخَر.

– قَوْس؟؟

– أظُنُّ أنَّنا قد عَلِقْنا في مَنْشـورٍ كبـيرٍ.. فَتَعَدُّدُ ألوانِ الأبوابِ المُقْتَصِرَةِ على ألوانِ الطَّيْفِ، لا يَعني غير ذلك.

– ولَكِنَّ الأبواب خَمْسَـة وليسـت سَـبَعَة... دقيقة!. ألوانُ قَوْسِ قُزَح سبعة، أليسَ كذلك؟

– أجادَّةٌ أنتِ في سؤالِكِ؟

– أُعذُرني! لَسْتُ مُثَقَّفَةً مِثلك.

– غير مُثَقَّفَة؟ هذا ليسَ الوَصْفَ الصَّحيحَ لَكِ.. الجَهْلُ هو ما يَجِبُ أنْ تَتَّصِفِي بِه، فألوانُ الطَّيْفِ لَيْسَتْ هي ألوانُ قَوْسِ قُزَح..

– فعلًا؟

- أجَل.. ألوانُ الطَّيْفِ خَمسَة، بينما ألوانُ قَوْسِ قُزَح سبعة..
- لِمَ تَبْتَسِمُ؟
- لا أبْتَسِمُ.
- بلى، أنتَ تُحاوِلُ إخفاءَ ابْتِسامَتِكَ.. هل تَسْخَرُ مِنِّي؟
- أبدًا... غير صحيح.
- حسنًا.. أكْمِلِ افْتِراضَك.
- مِنَ المُمْكِنِ أنْ يَكونَ المَنْشورُ قَدِ اخْتَصَّ كُلًّا مِنَّا بِزاوِيَةِ انْكِسارٍ مُحَدَّدَةٍ.. ولَكِنَّ هُناكَ شَخْصٌ مَا قَدْ تَسَبَّبَ بِالْفَوْضَى حينَ دَخَلَ مِن القَاعِدَةِ المُقابِلَةِ لِلْحَرْفِ وليسَ مِنْ الجانِبِ، فَجَعَلَ الجَميعَ يَتَداخَلونَ مَعًا... بِالطَّبْعِ تَفْهَمينَ كلامِي، أليسَ كذلك؟
- بِالتَّأكيد.. أتَظُنُّنِي غَبِيَّة؟
- حاشا للهِ أنْ أُلَمِّحَ لِذلِكَ!
- وما هُو الحَلُّ إذًا في رأيِكَ؟
- لا فِكْرَةَ لَدَيّ.. ولَسْتُ مُتَأكِّدًا على أيِّ حالٍ مِمَّا أقولُ، فَهو مُجَرَّدُ افْتِراضٍ ليس إلّا.
- وما مَصدَرُ تِلْكَ الِافْتِراضاتِ والتَّكَهُّناتِ؟
- أسَمِعْتِ عن قانون الِانْكِسار؟
- لا
- قانون سنِيل؟ ديكارت؟ ابْنِ سَهل؟

– تَوَقَّـفْ عَـنِ الكَلامَ الآن! عَقْلِي في طَوْرِ التَّجَمُّـدِ مِنَ البَرْدِ، وأنتَ لا تَزالُ تَتَحَدَّثُ عَنِ القوانينَ والنَّظَرِيَّات..

– لَيْسَت نَظَرِيَّات، إنَّها.....

– اِخْرَس!

***

هَزيمَةُ بَكر الثّانِيَة

أهـذا «حَمزَة»؟. ماذا يَفْعَـلُ ذَلِكَ المَتْعوسُ على جُـرْفِ البُرْكان وكيفَ وَصَـلَ إلى هُنـا؟ أمَيْـتٌ هـو أم حَـيّ؟. لا أرَى لِوَجْهِـهِ تَعْبيرًا ولا أسْـمَعُ لِصَدْرِهِ صَريرًا.. يَتَمَدَّدُ أمامي بِجِلْدٍ مُحْتَرِقٍ، أراهُ ولا يَراني..

فَمُـهَ مَفْتوحٌ عـلى مِصراعَيْهِ كَنافِذَةٍ غَـيْرِ مُحْكَمَةٍ في مَهَـبِّ الرِّيحِ.. وفي عَيْنَيْـهِ بلاهَةٌ وبلادَةٌ وكأنَّهُ قد انْفَصَلَ عَنْ نَفْسِـهِ، أو كأنَّ في أعصابِهِ عُطْلٌ يَمْنَعُها عَنْ نَقْلِ واسْتِقْبالِ الإشاراتِ مِن وإلى رَأْسِهِ..

كيفَ أُساعِدُه؟ مهلًا! ولِمَ أُساعِدُه؟ أفلَم أتَخَلَّصْ مِن إنسانِيَّتي وأتَحَوَّلْ إلى جُزْءٍ مِنَ عُنُقِ البُرْكان؟ فلأُقْمْ بِدَوْري بِالشكل الصَحيحِ إذًا، ولأنْهَش لَحْمَه الشَّهِيَّ وأطْحَن عِظامَهُ اللَّيِّنَةَ وأتَلَذَّذ بِقلبه الذائب..

... كَشَـفْتُ لِفَريسَـتي الجَديدَةِ والأُولَى عَنْ أنْيـابِي، وهَمَمْتُ بِالقَبْضِ عَلَيْها بألْسِـنَةِ اللَّهَبِ وثَوَرانِ السَّوائِل.. فإذا بِذِراعِي يَتَفَلَّتُ مِنَّ الصَّخْرِ، والآخَرُ يَتَشَـبَّثُ بِالحَافَّةِ.. وبدأتُ في اسْـتِعادَةِ لُيونَتي والإنْفِصالِ تَدْريجِيًّا عَنِ البُركان، حَتَّى فَقَدْتُ صَلابَتي وثَباتي سَريعًا ثُمَّ كِدْتُ أسْقُط..

وكذلـك عادَ لي مُجَدَّدًا الشُّـعورُ بِالألَمِ والخَوْفِ والضَّعْـفِ... لِمَ حَدَثَ ذلك الآن؟

أنـا لا أُريـدُ العَوْدَةَ إلى نُقْطَةِ البِدايَةِ مَرَّةً أُخْـرَى، ولا أوَدُّ الرُّجوعَ لِفَكِّ

النِّـزاعِ بَيْنَ الخَـيْرِ والشّرِّ في داخِلي، فَكَمْ كانَ سَـهْلًا التَّفْكـيرُ بِعَقْلِ الحَجَرِ والتَّحَدُّثُ بِلُغَةِ الجَمادِ!

كَيْفَ أَتَصَلَّبُ مَرَّةً أُخْرَى وأكْسـبُ التَجَبُّرَ وأخْسَرُ الإحْسـاسَ؟ فهل يَجِـبُ أن أُفَكِّـرَ بِنَفْـسِ الطَّريقَةِ الَّتي قـد أدَّتْ بي إلى التَّحَجُّـرِ أوَّلَ مَرَّةٍ إلى حَـدِّ التَّوَحُّدِ مَعَ الصَّخْر؟ فَيَبْدو أنَّ هذا هو السـبب في تَحَايُلِ البُرْكان عليّ وتلاعُبِهِ بِطَبيعَتِي الجَسَـدِيَّةِ كَيْ يَحميَني مِنَ السُّقوطِ، حينَ كُنْتُ أُوَسْوِسُ إلى عَيْنَيَّ لِتَنْعَسـا، وأُراوِدُ أصابِعِي عَنْ نَفْسِـها لِتَسْتَسْـلِمَ لِلْيَأسِ، وأُشَتِّتُ عَقْلِي لِيَتَغافَلَ عَنِ الخَوْف... فلا شَكَّ أنَّ هذا هو المُفْتاحُ لِلتَّحَوُّلِ، والحيلَةُ الَّتي قد جازَتْ مِنْ قَبْلُ وسَتَجوزُ بِالتَّأكيد على الجَبَلِ مُجَدَّدًا..

..نَفَّـذْتُ الخِطَّةَ وأرْخَيْتُ عَضَـلاتِ أصابِعِي، ثُمَّ رَجِعْـتُ بِرَأْسِي إلى الخَلْـفِ لِكَـي يتَدارَكَ الـبُرْكانُ الأمـرَ ويَحْمِيَنِي مِـنَ السُّـقوطِ بِالتَّصَلُّبِ، ولَكِنْ كانَ لِلْـبُرْكانِ رَأْيٌ آخَر هذه المَرَّةَ ورَدُّ فِعْلٍ مُخْتَلِفٍ.. وكأَنَّهُ يُعاقِبُني على اسْـتِهْتاري ويَرُدُّ على اسْـتِهْزائي بِهِ باسْـتِهْزاءٍ أكْبَر مِنـه، فَلَمْ أتَصَخَّر ولَمْ أتَحَـوَّل.. وتَحَرَّكَـتْ صِغارُ الحِجارَةِ مِـنْ بَيْنِ أصابِعي لِتُسَـهِّلَ عَلَيَّ أمْرَ السُّـقوطِ بِلا جِـدالٍ أو مُقاوَمَـة، لِأنْزَلِـقَ وتَنْزَلِقَ مَعِي الفُرَصُ وأسْـبابُ النَّجاةِ... فَسَـقَطْتُ سَـقْطَتي الأخيرَة إلى قَعْـرِ البُرْكانِ الثَّائِـرِ، لِأجِدَ ما لَمْ يَكُنْ مُتَوَقَّعًا...

***

وداعًا خَلدون

خَلْدون: أيَكْفي هذا؟

ريان: لا.. فَلْنَجْعَلْها أكْثَرَ عُمْقًا.

– ولَكِنَّها قد أصْبَحَتْ عَمِيقَةً بِما يكفي لِلْوقوفِ بِداخِلِها، فماذا تُريدُ أكْثَرَ مِن ذَلِك؟

– لا يَكْفي أنْ نَخْتَفِيَ عن أنْظارِهِم، فَعَلَيْنا كَذَلِكَ طَمْسُ رَوائِحَنا.

– لقد خارَتْ قُواي ولا أسْتَطيعُ مُواصَلَةَ الحَفْر بعدَ الآن.. أنتَ تَقْتُلُني بِشِدَّةِ حِرْصِكَ هذه.

– لَيْتَ الحَظَّ أوْقَعَني بِغَيْرِكَ! حَتَّى «رَنا» كانَتْ أكْثَرَ هِمَّةً وشَجاعَةً مِنْكِ.

– ومِنْكَ كَذَلِكَ!

– لا تَشْعُرْ بِالرَّاحَةِ وتَظُنّ أنَّ أمَامَنَا الكَثيرَ مِنَ الوَقْتِ، اسْتَمِرّ في الحَفْرِ بِأسْرَعِ ما يُمْكِن! إنَّهُم بِالفِعْلِ يَظْهَرونَ مِنَ العَدَمِ ويُباغِتونَ فَجْأَةً..

– أتُريدُ أنْ نَحْفُرَ الحُفْرَةَ ثُمَّ لا نَسْتَطيعَ الخُروجَ مِنْها؟ أرَى أنَّ هذا العُمْقَ كافٍ جِدًّا ولا دَاعي لِلْمُبالَغة.

– أُنظُرْ! أتَرَى هذا؟

– أهذا نَفَقٌ؟ لا يُمْكِن!

– تُرَى إلى أيْنَ يُؤَدِّي!

- لَعَلَّهُ الطَّريقُ لِلْخارِج.
- أيُّ خارِج؟
- إلى بَوَّابَةِ المتاهَةِ الرَّئيسِيَّةِ.
- لا، لا... لَنْ أُجَرِّبَ حَظِّي مُجَدَّدًا، فلقد أصْبَحْتُ أعرِفُهُ جَيِّدًا.
- حَقًّا؟! أسَتَعْلَقُ هُنا إلى لْأبَدِ؟ فيمَ تُفَكِّرُ أيُّها المَخْبول؟
- لنْ أبْرَحَ مَكاني هذا حَتَّى يَظْهَرَ لي البابُ الَّذي كُنتُ قد دَخَلْتُ مِنهُ.
- أوَسَيَظْهَرُ مِنَ العَدَمِ؟!
- أتَعْجَبُ مِن ظُهورِهِ مِنَ العَدِمِ ولا تَعْجَبُ مِن اخْتِفائِهِ بِلا أثَرٍ؟
- دَعْـكَ من هذا الهراء وازحف معي مِنْ خِلالِ النَّفَق.. فإنْ لَمْ يُخْرِجْنا مِنَ المَتاهَةِ، فَلَعَلَّهُ على الأقَلِّ يَنْقِلنا إلى مَكانٍ أكْثَر هُدوءًا وأمانًا.
- أجـل، كالمَـكانِ الَّذي جِئْتَ مِنْهُ بعدَ أنْ أحْرَقتَـهُ... صَحيح! أنتَ لَمْ تَذْكُرْ لي أيْنَ كانَ ذلِكَ الحَريقُ وما شَكْلُ الأرْضِ الَّتي كُنْتَ فيها؟
- كُانت مَدينَة أثَرِيَّة، أو مَهْجورَة، أو مَسْحورَة... لا أعلَم.
- وما كانَ شَكْلُ البابِ الّذي أوْصَلَكَ إلَيْها؟
- لَمْ يَكُنْ بابًا، بل كانِتْ حُفْرَةً.
- أوقَعْتَ في حُفْرَة؟. عَظيم! فَلَقَدْ كانَ انْطِباعِي عنكَ بِالفِعْلِ في مَحَلِّهِ.
- تأكَّدْ أنِّي لَسْتُ أقَلَّ نَباهَةً مِنْكَ!
- وماذا رَأيْتَ هُناك في تِلْكَ المَدينَةِ؟
- أظُنُّ أنِّي قد رَأيْت الماضِي، رِجْسَهُ وغَرائِبَه.

«أو لَعَلَّـكَ قد رَأيْتَ المُسْـتَقْبَلَ، قَريبَهُ وبَعيدَهُ»... قـال «ريانُ» مُهَمْهِمًا

قبلَ أن يَنْظُرَ إلى رَفيقِهِ مُتَعَجِّبًا ويسألَهُ: «ما الأمر؟ لِمَ تَوَقَّفْتَ عَنِ الحَفْرِ؟»

«لأني قد سَئِمتُ مِن أفكارِكَ!»... أجابَ «خلدونُ» وهو يَخْرُجُ مِنَ الحُفرَةِ وينفض يَدَيْهِ، ثُمَّ أتبعَ قائِلًا بِإصْرارِ مَنْ فاضَ بِهِ الكَيْلُ: «سأذهبُ أنا من خِلال السِّرداب ولَنْ أخْتَبِئَ معكَ في الحُفَرِ كَالجرذان»

- يالك من غَبِيّ!

- تَقَوْقَعْ يا عزيزي في حُفْرَتِكَ إلى أنْ تَتَحَلَّلَ، أمّا أنا فلَستُ مُضطرًّا لِاتِّباعِ خِطَطِكَ التَّافِهَة.

- هذا خَبَرٌ جَيِّدٌ، أتَمَنَّى لَكَ حَظًّا غَيْرَ سَعيدٍ!

***

عَودَة سُلَيمان

«كيفَ يَعـودُ الأمواتُ إلى الحياةِ في هذه المَتاهَـةِ المُريبَةِ؟!»... صاحَت «شيري» وهي تضرب كَفًّا على كَفٍّ.

سُليمان: أنا لَمْ أمُت من الأصل!

– لَقَد حَطَّمْتُ جُثَّتَكَ بِقَدَمَيَّ! أنا مُتَأكِّدَةٌ مِنْ ذلك..

– تلـك لَمْ تَكُن لي، فلَقَد كُنْتُ واقفًا أمامَكِ أصْرُخُ في أُذُنَيْكِ لكنك قد تَصَرَّفتِ كالصَّمَّاءِ العَمْياء.

– جَميعُكُم سَتُفْقِدوُنَنِي عَقْلي!

شاهين: أينَ ياسمين؟

– دَفَنْتُها في باطِنِ الأرْضِ.

– دَفَنْتَها؟ هل ماتت؟

– لا.

– ولِمَ فَعَلْتَ ذَلِك إذًا؟ أمَخْبولٌ أنتَ؟!

– لِتَنالَ بِعضَ الدِّفْءِ مِنْ حَرارَةِ الحُفْرَةِ.

شيري: لا شَكَّ أنَّكَ مَجْنونٌ!. أيُّ حَرارَةٍ في هذا الزَّمْهَرير؟

شاهين: وكَيْفَ أخْرَجْتَها مِن مُكَعَّبِ الثَّلْج؟

سُليمان: سَكَبْتُ عَلَيْها ماءً مَغْلِيًّا أتَتْنِي بِهِ «رَنا»..

شـاهين: أرَأيْـتَ «رنا»؟ أنـا أيضًا قَـدْ رَأيْتُهـا في اليَنْبوعِ حـينَ ذَهَبْتُ لِأغْتَسِلَ مِن دِماء فارِس.

سُليمان: دِماءُ فارِس؟!
شيري: أما كُنْتَ قَدْ أنْكَرْتَ رُؤيَتَها؟
شاهين: ولِمَ سَأُنْكِرُ ذلك؟
شيري: يا إلَهي، اِحْفَظْ لي عَقْلي!
شاهين: ومِن أيْنَ أتَتْ «رنا» بِالماءِ المَغْلِيِّ؟ وكَيْفَ وَصَلَتْ إلَيْكَ؟
سُليمان: لا أعْلَم... ولا أعْرِفُ كَذَلِكَ كَيْفَ وَصَلَتْ إلَيّ، فَقَدِ اسْتَيْقَظْتُ على طَعْمِ رَحيقٍ في فَمي كانَت تسْقيني إيَّاه، إلى أنْ شَعَرْتُ بِقُوَّةٍ ودِفْءٍ يَسْرِيانِ في جَسَدي.. وهذا كُلُّ ما أتَذَكَّرُ.
شاهين: أيُّ رَحيقٍ هذا ومِن أينَ جاءَت بِه؟
سُليمان: لا فِكْرَةَ لَدَيّ.
شيري: هذا يَعْنِي أنَّكَ كُنْتَ مَيتًا بِالفِعْلِ كما رأيْتُكَ.
- لَقَدْ فَقَدْتُ الوَعْيَ لَمْ أمُتْ.. وحينَ جِئْتِ كُنْتُ مُسْتَيْقِظًا أصيحُ في أُذُنَيْكِ.
- هل فَقَدْتَ الوَعْيَ بعدَ أنْ جِئْتُ أنا وغادَرْتُ؟
- بل قَبْلَ ذّلكِ.. لا.. لَسْتُ مُتَأكِّدًا.
- ولَكِنَّ الجُثَّةَ كانَت تُشْبِهُكَ كَثيرًا..
- لَم يَكُن لِلْجُثَّةِ أيُّ مَعالِمِ مِنَ الأساس..
- لَقَدْ سَئِمْتُ مِن هذا العَبَثِ! ولا أُريدُ الآنَ إلّا الخُروج مِنْ هذا الصّقيعِ قَبْلَ أنْ يَقْتُلَني.
شاهين: ولِمَ لَمْ تَطْعَمْ اِبْنَتَكَ ذاك الرَّحيق كَي تَشْعُرَ بِالدِّفْءِ مِثلك؟

– ليسَ مَعي مِنْهُ شَيء، فلَم تَتْرُكْ لي «رَنا» إلَّا الماءَ السَّاخِنَ فقط، بينما أخَذَت معها الشَّرابَ الأبْيَضَ ورَحَلَت... وأنْتَ، ماذا فَعَلَتْ مَعَكَ؟

– ساعَدَتْني طَويلًا في البَحْثِ عَنْ «شيري»، ثُمَّ تَرَكَتْني وعادَت إلى اليَنْبوعِ.

– وأينَ كانَ ذَلِكَ اليَنْبوع؟

– تَحْتَ أرضِ الغَابَةِ عِنْدَ سَفْحِ الجَبَلِ الأخْضَر، على بُعْدِ مِئاتِ الأمْتار مِن نَخْلَةٍ عَظيمَةٍ.

شيري: أيُّ غابَةٍ؟. أتَقْصدَ الأشْجار؟

شاهين: لا لا... بل غابَة كَبيرَةٌ خَضْراء ومُوحِشَة أعلى الجَبَل، يَخْرُجُ مِنْها أصواتٌ لا تَصْدُرُ إلَّا مِن وُحوشٍ أو عَمالِقَة.

سُليمان: غابَة فوق الجَبَل؟

– إنَّها سِلْسَلَةُ جِبالٍ طَويلَةٌ ومُتَّصِلَةٌ، على قِمَمِها الأشجارُ الكَثيفَةُ وكذلك المُسْتَنْقَعات.

شيري: وكيف عَلِمْتَ بِأمْرِها؟

– أخَذَتْني «رَنا» إلَيْها لِنَبْحَثَ عَنْكِ، وكانَتْ حَريصَةً جِدًّا على الْتِزامِ الأماكِن الآمِنَة بِدِقَّةٍ شَديدة.. وكأنَّ في رَأسِها قَمَرٌ صِناعِيٌّ وفي عَيْنَيْها خَريطَةٌ.

– هل تَسَلَّقْتُم أم ماذا؟

– بل صَعَدْنا عَنْ طَريقِ المَمْشَى الجَبَليِّ..

شيري: وهل اِلْتَقَيْتُما بأحَدٍ هُناك؟

شاهين: لا لَمْ نَرَ أحَدًا.

سُليمان: وما أمْرُ اغْتِسالِكَ مِنْ دَمِ فارِس هذا؟

شاهين: لقد ضَرَبْتُهُ بِحَجَرٍ على رَأسِهَ أثْناءَ عِراكِنا، ثُمَّ..

شيري: بل إنَّ العَكْسَ صحيح.

سُليمان: دَعيهِ يُكْمِل!. ثمَّ ماذا؟

شاهين: خَنَقْتُهُ حَتَّى خَرَجَتْ روحُه، وخَرَجَ مَعَها سَيْلٌ مِنَ التُّرابِ مِن فَمِهِ و...

شيري: هَل كُنْتُ أنا واقِفَةً أُشاهِدُ كُلَّ ذلك؟

سُليمان: تَوَقَّفِي عَن مُقاطَعَتِهِ!

شاهين: نعم، أتَذَكَّرُ صِراخَكِ أنتِ وفيروز جَيِّدًا.. ولَكِنَّكُما قد اخْتَفَيْتُما أثْناءَ تَقْطيعي لِجِسْمِهِ.

شيري: ما هذا الهُراء؟

سُليمان: أنا الآنَ على وَشْكِ أنْ أفْعَلَ مَعَكِ كما فَعَلَ أخوكِ بِفارِس!

شيري: لِمَ أنتَ مُتَلَهِّفٌ هكذا لِمَعْرِفَةِ تِلْكَ القصَّةِ الكاذِبَة؟

شاهين: لَيْسَت كاذِبَة! أنا أقولُ الحَقيقَةَ.

سُليمان: أُريدُ الوُصولَ إلى حَقيقَةِ ما تَفْعَلُهُ هذه المَتاهَةُ بِنا... أكْمِلْ يا شاهين! لِمَ قَطَّعْتَ جَسَدَهُ؟

شاهين: أرَدْتُ مَعْرِفَةَ أصْلَ التُّرابِ هذا.. فَأَخَذْتُ أبْحَثُ عَنْ سِكِّينٍ أو أيِّ أداةٍ حادَّةٍ لِشَقِّ حَنْجَرَتِهَ وصَدْرِهِ، حَتَّى وَصَلْتُ إلى النَّخْلَةَ المُسْتَتِرِ جِذعُها وراءَ حائِطٍ مُتَهالِكٍ، حيثُ كانَ راسِخًا فيهِ سَيْفٌ أسْوَدُ النَّصْلِ

أخْـضَرُ القائِـم، شَـديدُ الجاذِبيَّـةِ واللَّمَعانِ، ولَـهُ بَريقٌ خاطِفٌ لا يَشـوبُهُ شـائِبَةٌ، نَظيفٌ ونَقِـيٌّ، لَمْ يقطع اللَّحْمَ مِـنْ قَبْلُ ولَمْ تُلَطِّخْـهُ الدِّماءُ، وكأَنَّهُ صُنِعَ هذا الصَّباح.. اِنْتَزَعْتُهُ مِن مَكانِهِ وقَطَّعْتُ بِهِ جسد فارِسَ.. وبَعْدَ أنِ انْتَهَيْتُ مِنَ التَّشْريحِ والدَّفْنِ، ذَهَبْتُ نَحْوَ اليَنْبوعِ لِأغْتَسِلَ فيمائِه.. وهُناكَ قابَلْتُ «رَنا».

شيري: لا تُصَدِّقْهُ، هذا لَمْ يَحْدُثْ أبَدًا.. إنَّهُ مَجنون!

سُليمان: هذا الأمْرُ لَم يَعُد يَعنيني.. أُريدُهُ فَقَطْ أنْ يَأخُذَني إلى «رنا» كَي آخُذَ مِنْها الرَّحيقَ مِنْ أجْلِ ابْنَتي.

شـيري: ولَكِنَّهُ يَعْـرِفُ الطَريقَ مِن أرْضِ الفَراشـاتِ، لَيْسَ مِن أرضِ الثَّلْجِ هذه.

سُـليمان: لَعَلَّهُ بابٌ سِـحْرِيٌّ واحِـدٌ في جَميعِ العَوالِمِ يَصِـلُ بِنا إلى حَيْثُ نُريد.. أرجوكَ أخْبِرْني المَزيدَ يا شاهين!

شاهين: لا أعْلَمُ شَيْئًا عَنْ أبوابٍ سِحْرِيَّةٍ..

شيري: أيْنَ هو السيف؟ أما جلبته معكَ؟

سليمان: هل عَرِفْتَ مَصْدَرَ الرِّمالِ المُتَدَفِّقَةِ مِن جَسَدِ فارِس؟

شاهين: لا، فَلقَد تَحَوَّلَتْ إلى دَمٍ بِمُجَرَّدِ أن لامَسَها حَدُّ السَّيْفِ.

شيري: لَقَدْ فَقَدْتَ عَقْلَكَ تَمامًا!

شاهين: صَدِّقِي أو لا تُصَدِّقِي!. لا يَهُم

مِنَ النّارِ إلى أرضِ الجِنان

لَمْ أتَوَقَّعْ تَلْكَ الرَّحْمَةَ أبَدًا.. لا نارَ ولا صُخورَ، ولا دُخَّانَ ولا غازات.. الرِّمالُ فقط، ولا شَيْءَ غَير الرِّمال.

... تَمَرَّغْتُ كَطِفْلٍ غُمِسَ حَديثًا في نَعيمِ الجَنَّةِ فوقَ هذا الحَريرِ الزَّلِقِ، وأنا أشْعُرُ بحُروقي تَشْفَى وجُروحي الغائِرَةِ تَلْتَئِم ونارِ صَدْري تَنْطَفئ... وأخيرًا تَوَقَّفَ دَمي عَنِ الغَلَيانِ، وعادَت بَشْرَتي المُهْتَرِئَةُ إلى طَبيعَتِها... لا أُصَدِّقُ أنِّي قَدْ نَجَوْتُ بَعْدَما كُنْتُ مَحْشورًا كَقِطْعَةِ اللَّحْمِ بَيْنَ طَبَقَةٍ مِنَ النَّارِ وطَبَقَةٍ مِنْ نَسيجِ الشَّمْسِ...

فَلَقَد لَفَظَنِي قَعْرُ البُرْكانِ عَبْرَ نَفَقٍ مُنْتَهاهُ قاعُ دَوَّامَةٍ رَمْلِيَّةً، وَاصَلْتُ رِحْلَتي صُعودًا لِأخْتَرِقَ سَطْحَها بِقُوَّةِ الدَّفْعِ الَّتي لا أعْرِفُ مَصْدَرَها، وكأنِّي أسْبَحُ في أنْفٍ كَبيرٍ يَقومُ صاحِبُهُ المَزْكومُ بِالتَّمَخُّطِ بِقُوَّةٍ، فَأكْمَلْتُ بِفَضْلِ نَفْخَتِهِ طَريقِي إلى السَّماءِ مُرْتَفِعًا ثُمَّ على الأرضِ مُرْتَطِمًا..

.. رَأيْتُ فارِسَ يَجْري حَوْلَ الدَّوَّامَةِ وفي وَجْهِهِ الفَزَعُ الشَّديدُ.. أظُنُّ أنَّهُ يُحاوِلُ الهَرَبَ مِنْها، ولَكِنَّهُ في حَقيقَةِ الأمْرِ يَلفُّ في دوائِر حَلَزونِيَّةٍ ويَقْتَرِبُ أكثَرَ مِن مَرْكَزِها.. صَرَخْتُ عِدَّةَ مَرَّاتٍ بِاسْمِهِ بَيْنَما أتَمَدَّدُ على بُعْدِ خُطُواتٍ مِنَ الدَّوَّامَةِ، ولَكِنَّ زَفْيَ العَاصِفَةِ كان يَغلِبُ صِياحِي.. فنَهَضْتُ مِن مَكاني واتَّجَهْتُ إلَيْهِ راكِضًا، ثُمَّ أمْسَكْتُ بِذِراعِهِ واجْتَذَبْتُهُ نَحْوي لِأُلْقِيَ بي وبِهِ خارِجَ حُدودِ تِلْكَ المَكْنَسَةِ...

نَظَـرَ إلَيَّ والذُّهولُ مَـعَ الرُّعْبِ في وَجْهِهِ يَتَحَدَّثانِ بِلِسـانِه، ثُمّ سـألَني بِصَوْتٍ مَبْحوحٍ أسْـئِلَةً غـيرَ مَفْهومَةٍ وهو يَهْذِي مِـنَ الصَّدْمَةِ والتَّعَبِ... يَبْدو أنَّهُ كانَ يُصارِعُ قُوَى امْتِصاصِ تِلْكَ الحُفْرَةِ لِسـاعاتٍ، أو شُـهورٍ أو سَـنَوات، لا أسْـتَبْعِدُ ذَلِكَ... فَكُلُّ شَيْءٍ مُمْكِنٌ في تيهِنا هـذا، وتَمَدُّدُ الزَّمَنِ وانْكِماشِهِ أمْرٌ غَيْرُ مُسْتَحيلٍ..

ذَهَبَ بِي إلى ما يُسَـمِّيهِ أرْض «الشـامبالا» -على حَـدِّ قَوْلِهِ- أو أرض الفَراشـاتِ الصَّفْراء، وأخْبَرَني أنَّ أُخْتَهُ تَنْتَظِرُهُ فيها وراءَ الجَبَلِ عِنْدَ جِذْعِ نَخْلَةٍ..

اجْتَزْنا الجَبَلَ إلى أرْضٍ غَريبَةٍ عَنْ طَريقِ مَمْشَـى جَيَلِيٍّ، دونَ أنْ نَعْبُرَ أيَّ بَوّاباتٍ أو أنْفاق.. أحْسَسْتُ بِانْزِعاجٍ شَديدٍ وعَدَمِ انْسِجامٍ مع ذلك المَكانِ الجَديدِ، الَّذي تَتَفَرَّقُ فِيهِ الأرْواحُ على الرَّغْمِ مِنِ اجْتِماعِ الأجْسـادِ... فلقد كانَ هُناكَ تَضادٌّ كَبيرٌ في إدْراكُنا وحَواسِّـنا، إذ أنَّ «فارس» كانَ يُشـيرُ إلى الخَنادِقِ ويَقولُ هذه أنْهارٌ على وَشكِ الجَفافِ، ويُشَبِّهُ رائِحَةَ العَفَنِ والنَّتَنِ بِرائِحَـةِ الغُبـارِ، وَيَصِفُ الأشـجارَ المُحْتَرِقَةَ بِأنَّها بالِيَة، ويَرَى الفراشـاتِ السَّـوْداءَ صَفْراء.. أشْـعُرُ أنـا بِالْحَرِّ الشَّـديدِ بينما هو يَدَّعـي أنَّ الهواءَ فيهِ جَفافُ الخَريفِ وبُرودَتُه.. كانَت مِشْيَتُهُ طَبيعِيَّةً وسَهْلَةً، ومِشْيَتي أنا ثَقيلَةٌ جِدًّا وكأنِّي قد اجْتَزْتُ المائَةَ عام..

لَمْ أشْـعُرْ أنَّ عِظامِـي تَتَهـاوَى أو أنَّ عَضَلاتِي تَتَهَـدَّلُ، ولَكِنِّي مع ذلك كُنْتُ أفْعَلُ كُلَّ شَيءٍ بِبُطْءٍ بالِغٍ، وأشْهَقُ في دَقيقَةٍ وأزفرُ في دَقِيقَتَيْنِ.. أنْطِقُ

الكَلِمَةَ الواحِدَةَ في زَمَنِ ثلاثِ جُمَلٍ، وأُنْتهي مِنْ تَحْريكِ عَدَسَتَي عَيْنَيَّ أو جِفْنَيّ بَعْدَ أنْ يَقْتُلَني المَلَلُ مِنْ طولِ الوَقْتِ المُسْتَغْرَقِ لِإتمامِ تلك العَمَلِيَّةِ..

... بَلَغْنا النَّخْلَةَ المَقْصودَةَ، ولَكِنَّ فيروزَ لَمْ تَكُنْ وَحْدَها.. كانَ معها طِفْلَةٌ على رَقَبَتِها نَجْمَةٌ بَيْضاءُ...إنَّها «ياسمين»، أظُنُّ أنَّها تَرْتَجِفُ مِنَ البَرْدِ... بَدتِ المُفاجأةُ على وَجْهِ «فارِس» حين رآها، فمِنَ الواضِحِ أنَّها قد وَصَلَت إلى هذه الأرض حديثًا.. رائِع! فهذا يَعْني أنَّ هُناكَ مَزيدٌ مِنَ المَعابِرِ والفُرَصِ..

صَرَخَتْ «ياسمينُ» ودَفَسَتْ وَجْهَها في ثِيابِ «فيروز» بِمُجَرَّدْ أنْ رَأَتْني.. وكَذَلِكَ قد تَأَذَّتْ «فَيروزُ» مِنْ شَيْءٍ تَراهُ في سِماتِ وَجْهي، فَسألَتْني فَوْرًا وعلاماتُ الِاشْمِئزازِ في ملامِحِها؛ «ما هذا يا بَكْرُ؟ ما الَّذي حَدَثَ لَك؟».. نَظَرْتُ لِفارِس لَعَلَّهُ يَفْهَمُ سؤالَها، ولَكِنَّهُ كانَ مُتَعَجِّبًا مِثْلي..

«عَمَّ تتحدثين؟».. سألتُها مُسْتَنْكِرًا، فأجابَت وهي تتحاشى النَّظر إلَيّ؛ «تَبْدو مِثْلَ صورَةِ التِّلْفازِ المُشَوَّشَةِ، أجْزاءُ وَجْهِكَ مُبَعْثَرَةٌ، وصَوْتُكَ كَصَوْتِ رَاديو سيارَةٍ تَمُرُّ مِنَ خِلالِ أَحَدِ الأنْفاق»...

أهذا أشْعُرُ بالنِّزاع مع المُحيطِ وكأنِّي قد سَقَطْتُ في كوبٍ مِنَ الزِّئْبَقِ؟ إنَّ هذه البيئَةَ تَرْفُضُني وأرْفُضَها، وبِشِدَّةٍ!. فَهل أعودُ إذًا مِنْ حَيْثُ جِئْتُ؟ حَيْثُ الرَّاحَة في أحْضانِ الرَّمْلِ النَّاعِمَةِ، والسَّكينة في صَمْتِ الصَّحراء.. أم أُجاهِدُ لِأبْقَى مَعَهُم وأتْبَعُ القَطيعَ بَحْثًا عَنِ الأمان؟ فمِنَ الأكيدِ أنَّ اجْتِماعَنا سَوِيًّا سَيُيَسِّرُ عَلَيْنا إيجادَ المَخْرَجِ في نِهايَةِ المَطافِ، بينما عُزْلَتي ستَجْعَلُني أعْلَقُ وَحيدًا بِانْفِصالي عَنِ الجَماعَةِ..

حَقًّا لا أدْري ماذا أفْعَل..

... تَوَلَّيْتُ عَنْهُم خَجَلًا مِن نَظَراتِ الفَتاتَيْنِ، وجَلَسْتُ بَعيدًا أُفَكِّرُ في قَراري بينما أغوص في عُمْقِ رَغْبَتي وأغْوارِ نَفْسي؛ أبِالفِعْلِ أُريدُ الخُروجَ مِن متاهَةِ الزَّمَنِ والمَكانِ هذه؟ وهل أُريدُ العَوْدَةَ لِحياتِي البائِسَةِ وأخْلاقي الفاسِدَة؟. فَلِمَ لا أنتهز فُرصةً قد تُتاح لي لِأكونَ شَخْصًا آخَرَ؟ فَلا أضطَرُّ إلى التَّظاهُرِ والتَّخَفِّي داخِلَ إنْسانٍ لا يُشْبِهُني.. ولَعَلِّي حينَ أمضي مِن أرْضِ الفراشاتِ هذه، أجِدُ في المُسْتَقْبَلِ ما هو أفْضَل وأبْهَى!

..تَسَمَّعْتُ حَديثَهُم وجِدالَهُم، وعَرِفْتُ أنَّ «ياسمينَ» قد وَصَلَتْ إلى هُنا عَنْ طَريقِ يَنْبوعٍ تَمْكُثُ فيهِ «رَنا».. فَنَظَرْتُ حَوْلي في جَميعِ الِاتِّجاهاتِ لِأرَى ذَلِكَ اليَنْبوعَ، ولَكِن لا أثَرَ لَه... كانَت «ياسمينُ» تُشيرُ إلَيْهِ بِإصبعِها، مِمَّا يعني أنَّهُ على مَرْأى العَيْن.. ولَكِنْ كانَ لِعَيْنَيّ كالعادَةِ رَأيٌ آخَرُ!

فاضَ الكَيْلُ بي وقَرَّرْتُ اجْتِيازَ الجَبَل والعَوْدَةَ إلى أرْضِ الدَّوَّامَةِ دونَ إخْبارِ أيٍّ مِنْهُم... ولَكِنِّي قَبْلَ أن أذْهَب فَكَّرْتُ في انْتِزاعِ السَّيْفِ المُسْتَقِرِّ في جِذْعِ النَّخْلَةِ، لِأحْفُرَ بِهِ بِئْرًا أو لِأسْتَعْمِلَهُ في الدِّفاعِ عَنْ نَفْسي.. فَبِما أنِّي قَد قَرَّرْتُ المُكوثَ هُنا والبقاءَ وَحْدِي، فَيَجِبُ عَلَيّ أخْذ احْتِياطَاتي اللَّازِمَةِ -على حَدِّ اعْتِقادِي-

ولَكِنِ المُفاجَأةَ أنَّ «ياسمين» قدِ انْتَفَضَتْ بِمُجَرَّدِ أن لَمَسْتُ مَقْبَضَ السَّيْفِ، وأخَذَتْ تَبْكي بُحُرْقَةٍ وتُحْدِثُ ضَجَّةً عالِيَةً وتَقولُ كَلامًا غيرَ مَفْهومٍ؛ «لا تَقْتُلْ أبي بعدَما ماتِ! لا تَدْفِنْهُ بعدَ أنْ عاشَ!»...

والأعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ؛ أنَّ الاسْتِغْرابَ لَمْ يَظْهَر في عَيونِ «فارس» و «فيروز»، على الإطْلاقِ... وكانَ الهُدوءُ يَتَملَّكُهُما وكأنَّهُما لا يَسْمَعانِ شَيْئا.. فَتَرَكْتُ السَّيْفَ سَريعًا ورَكَضتُ فارًّا مِن تلك البُقْعَةِ المَسْحورَةِ بِلا رَجْعَةٍ.

وَصَلْتُ إلى سَفْحِ الجَبَلِ الّذي جِئتُ عَبرهُ مع «فارِس»، ولَكِنِّي لَمْ أجِدِ المَعْبَرَ لِلْمَمْشَى الجَبَلِيِّ.. فيَبْدو أنَّ ذاك المَعْبَرَ يُرْى فقط مِنَ خارِجِ هذا المكانِ وليسَ مِن داخِلِه... فَتَسَلَّقْتُ الجَبَلَ الحَريريَّ على أمَلِ الوُصولِ إلى الجانِبِ الآخَر، ولَكِنِّي كُلَّما تَسَلَّقْتُ كُلَّما ازدادَ الجَبَلُ طولًا، أقْطَعُ مِتْرًا فَيَعْلو الجَبَلُ مِتْرَيْنِ..

أليسَ هذا نفس الجبل الذي كان «فارس» قد اجتازَهُ لِيَبْلُغَ أرْضَ الدَّوَّامَةِ؟ فَلِمَ يُسْمَحُ لَهُ بِالعُبورِ بينما أُمْنَعُ أنا؟ أفتَقْرَأُ هذه المَتاهَةُ نَوايانا وتَرَى ما في قُلوبِنا؟! فَكيف أدْرَكَتْ أنِّي أُريدُ المُرور بِلا عَوْدَةٍ؟ ولِمَ قد أحاطَتْنا بهذا السِّجْنِ وفرضَت عَلَيْنا تلك العُبودِيَّة؟

أخَذْتُ أثورُ وأتَساءَلُ بينما أُجاهِدُ عناصرَ تتشبه بالطَّبيعَةَ.. ولَكِنْ ما نَفَعَني الغَضَبُ وما ساعَدَني الإصْرارُ.. وطالَ بِيَ الوَقْتُ في ذلك الصِّراعِ حَتَّى أدْرَكْتُ مُتَأخِّرًا أنَّ الأوانَ قَد فاتَ، وأنِّي قَدْ حُبِسْتُ بِالفِعْلِ في هذه الجِّهَةِ مِنَ الأرْضِ البنفسجية مع الآخرين.. ولا عادَ لي مَفَرٌّ مِنْ النِّزاعِ مَعَ الخَيالِ، أو رُبَّما الاِسْتِسْلامِ لِلْواقِعِ... في الحَقيقَةِ لا أعلم!

أينَ السَّيف؟

– والله قد دَفَنْتُها هُنا!

«اِخْتَفَت مُجَدَّدًا!».. قالَ «شاهينُ» بِنَظْرَةِ ارتِيابٍ واضِحَةٍ لِلأبِ الّذي قد سَقَطَ على رُكبَتَيْهِ وتَلَفَّتَ حَولَهُ بِعَيْنَيْنِ زائِغَتَيْنِ، وهو يَرْفَعُ ذِراعَيْهِ لِلسَّماءِ بِفيهِ مَفتوحٍ لا يَقدُرُ على السُّؤال... الكَلِماتُ لا تَخْرُجُ مِنْهُ ولا الصَّوْتُ ولا الأنفاس... أضاعَتِ ابْنَتُهُ أم أنَّهُ قد قَتَلَها؟. لا أحَدَ يَفْهَمُ، ولا هو كذلك يَدري.

«كيفَ لِهذا الدِّفءِ أن يَخْرُجَ من وَسَطِ الثَّلْجِ؟!»... قالَت «شيري» كَالمُنتَشِيَةِ بينما تُمَرِّرُ قَدَمَها في قَعرِ الحُفرَةِ، وتُقاوِمُ رَغبَتها في الإلقاءِ بِكامِلِ جَسَدِها إلى الدّاخِلِ.

سألَ «شاهينُ» مُتَعَجِّبًا بينما يبتَعِدُ عن المسؤول بِضع خَطَواتٍ، وكأنَّهُ يتحاشى الوُقوفَ قُربَ هالَةِ أحدِ السَّحَرَةِ أو العفاريت: «كيف حَفَرْتَ تلك الأرض الحجريَّة؟!»...

– بِالطَّبْعِ لم أحفُرْها!. فيها اسْتَفَقْتُ على طَعْمِ الشَّرابِ الَّذي قد أتَتْني بِهِ «رَنا» قبلَ أنْ تَتْرُكَني.

– ألا تَذْكُرُ كيفَ فَقَدْتَ وَعْيَكَ؟

– أظُنُّ أنَّ الصَّقيعَ قد نالَ مِنِّي حَتَّى أوْشَكْتُ على المَوْتِ، ولَكِن لا أدري كيفَ وَصَلْتُ إلى جَوْفِ هذه الحُفْرَة..

شيري: أَلَمْ تَقُلْ لَكَ «رنا» شَيْئًا؟

-لا.. أو رُبَّما قالَت، لَسْتُ مُتَأكِّدًا.. فلقد كُنْتُ أرَى وَجْهَهَا مُشَوَّشًا ولا أقْدِرُ على الحَديثِ.. وقَبْلَ أن أنْتَهِيَ مِن شُرْبِ الرَّحيقِ وأسْتَعيدَ قُوَّتي، كانَت هي قد رَحَلَتْ قَبْلَ أنْ أسْألَها عَنْ شَيء.

- وفي أيِّ اتِّجاهٍ قد ذَهَبَتْ؟

- لا أتَذَكَّر..

«لَعَلَّ في هذه الحُفْرَةِ فتحة جانِبِيَّة قد خَرَجَت مِنها ياسمين»... قالَ «شاهينُ» وهو يقفزُ إلى داخل الحُفرَةِ مُنْقَلِبًا على وَجْهِهِ.

- أوه أخي! هل أنتَ بِخَيْرٍ؟

«لا لَستُ بِخَيرٍ!»... رَدَّ عَلَيْها بِعُروقٍ نافِرَةٍ وغَيْظٍ مَكتوم، ثُمَّ أتْبَعَ قائِلًا وهو يَصيح؛ «أفَسَنَظَلُ إلى الأبَدِ هُنا؟ حيثُ الأيّام لا تَتَناوَبُ واللَّيْل والنَّهار لا وُجودَ لَهُما!»... ثُمَّ صَرَخَ وهو يَضْرِبُ حَجَرَ الحُفْرَةِ بِقَدَمِهِ مَرَّاتٍ عَديدة حَتَّى ظَنَّا أنَّ شَيْئًا لن يوقِفَهُ.

«تَحَرَّكْ إلى اليَمينِ قَليلًا»... قاطَعَتْهُ أُخْتُهُ بِوَجْهٍ مُنْدَهِشٍ قبل أن تسألَهُ؛ «أتَرَى هذه الفَتْحَةَ في قَعْرِ الحُفْرَةِ؟»

- أجل أراها..

«لقد كانَتْ أكْبَرَ حَجْمًا مِنْ ذَلِك بِمِقْدارِ الضِّعْفِ قبلَ ثَوانٍ، أظُنُّ أنَّها تَنْكَمِشُ وتَتَمَدَّدُ»... قالَت بِفَرْحَةٍ تَفوقُ فَرْحَةَ مُكْتَشِفِ القارَّاتِ ومُخْتَرِعِ العقاقير.

- «مُنذُ متى وأنتِ تُلاحِظينَها؟»... سألَها «سُليمان» ولَكِنَّها قد تَجاهلَتْ سُؤالَهُ، ثُمَّ طَلَبَت من أخيها أن يُعْطِيَها السَّيفَ.

- لِماذا؟

- أَلَمْ تَقُلْ أَنَّهُ سَيْفٌ سِحْرِيٌّ؟ فَلَعَلَّنا نُوَسِّعُ بِهِ الفتحَةَ.

- ولَكِنِّي لَسْتُ مُتأكِّدًا من أَنَّهُ سِحْرِيًّا.. كانَ افتِراضًا ليسَ إلَّا.

قاطَعَهُما الأبُ المَكلومُ بِصَوْتٍ غَليظٍ قائِلًا: «لِمَ تُماطِلُ هكذا؟ فَلْتُعْطِنا السَّيفَ لِنُجَرِّبَ حَظَّنا مَعَهُ، ما خَطْبُكَ يا رَجُل؟»

- السَّيْفُ لَيْسَ مَعي.

«لَقَدْ جِئْنا بِهِ مِن خِلالِ البابِ الزُّجاجِيِّ لِنَكْسِرَ الجَليدَ المُحيطَ بياسمين، ألا تَذْكُر؟»... سَألَتْ الأُختُ أخاها بِصَوْتٍ خافِتٍ ونَبرَةٍ هادِئَةٍ، فَرَدَّ بِنَبْرَةٍ دِفاعِيَّةٍ قائلًا: «بلى.. أذْكُرُ جَيِّدًا أَنِّي كُنتُ أحْمِلُهُ مَعي، ولَكِن لا أتَذَكَّرُ أينَ وَضَعْتُهُ»

سُليمان: هل رَأيتِهِ مَعه؟

- كانَ يُخَبِّئُ شَيْئًا وراءَ ظَهْرِهِ عندما الْتَقَيْتُهُ، وحينَ سألتهُ عَمَّ يُخَبِّئُ قالَ إنَّهُ السَّيْف، ولَكِنِّي لَمْ أرَ شَيْئًا»... رَدَّتْ وهي تَتَعَثَّرُ في الكلام.

- أَتُكَذِّبونَني؟ وما الَّذي قَدْ يَدْفَعُني إلى الكَذِبِ؟ فإذا أرَدْتُ إخفاءَ أمْره، ما كُنتُ لِأَذْكُره مِنَ الأساس.. لقد كان مَعي وكُنتُ أضَعُهُ في مِلابِسي ومن أجل ذَلِكَ لَمْ تَلْحَظوهُ، ولا أدْري كيف اخْتَفَى!

سُليمان: تَضَع سَيْفًا في ملابسكَ؟ عَفوًا، ماذا تَظُنُّ نَفْسَكَ؟

شاهين: ولِمَ لا ؟ فَهو يَتَقَلَّصُ ويَتَمَدَّدُ، كالحُفْرَةِ تَمامًا..

سألَ «سُليمانُ» أُخْتَ شاهين هامِسًا: «هل هو دَوْمًا هكذا؟ أم أنَّ المتاهَةَ قد فَعَلَتِ به هذا؟»...

«أتَذَكَّـرُ أنَّـهُ كانَ مِـنْ قَبلُ عَاقِـلًا».. أجابَتْـهُ وكأنَّها تُحاوِلُ دَفعَ شُـبْهَةَ الجُنونِ عن دِماءٍ تُشـارِكُهُ إيَّاها. فأجابَها «سُـليمان» بعد أن فاضَ بِهِ الكَيلُ قائِلًا: «لَيْتَهُ كانَ مَجنونًا! ولَكِنَّهُ في الحَقيقَةِ كاذِبًا»

خلدون في مَركَزِ النَّجمَة

تَخَلَّصْتُ مِن ضَجيجِ الوُحوشِ ولُهاثِها ورَجِعْتُ إلى صَمْتِ أرضِ المَعابِد والآثار، والَّتي قد تَجَمَّلَتْ ولَبِسَت ثَوْبًا جَديدًا يَسُرُّ النَّاظِرينَ، وعادَت لَها الحَياةُ وعادَ مَعَها الشَّبابُ.. فَلَقَدِ انْتَعَشَتِ التُّرْبَةُ وتَنَفَّسَتْ بعدَ أنْ كانَتْ مَيِّتَةً، وبَرَزَتِ النَّباتاتُ العَجيبَةُ وتَعافَتِ الأشْجارُ المَجْروحَةُ ولَمْ تَعُدِ الألْوانُ باهِتَةً كما كانَت... كذلك ظَهَرَتِ القِلاعُ مِنَ العَدَمِ والْتَأمَتْ شُقوقُ الجدران بعد أن استقامت، كما نَهَضَ الرُّكامُ مِن نَوْمَتِهِ لِيَتَراكَبَ مُجَدَّدًا، فَتَقومَ الأبْنِيَةُ جَميعًا بعدَ سَقْطَتِها...

فُتِنْتُ بِجَمالِ المَدينَةِ ولَمْ أُدْرِكْ في البِدايَةِ أنَّ الحَظَّ قد خَدَعَني حينَ اِنْتَشَلَ سَمْعي مِن أصْداءِ هَيْضَلَةِ الغيلان، لِيُلْقِيَ بِهِ بَيْنَ فَحيحِ العَرَّافينَ ودَبيبِ المَرَدَةِ... إلَّا عِنْدَما ظَهَرَ لي مِنَ العَدَمِ أشْباهُ بَشَرٍ يَتْلونَ الأناشيدَ ويُرَتِّلونَ الطَّلاسِمَ ويَحُدُّونَ الشَّفْراتِ...

اِسْتَمَرُّوا في التَّقَدُّمِ نَحْوي والاِقْترابِ مِنِّي، إلى أنِ اخْتَلَطَ عَلَيَّ الأمْرُ وظَنَنْتُ أنَّ سوقَهُم جُذوعُ نَخْلٍ مُتَحَرِّكَةٌ.. فَقَد كانَ رأسِي لا يتَعَدَّى رُكْبَةَ بالِغِهِم إذا جَلَسْتُ، ولا أرَى إلَّا الأذْقانَ والرِّقابَ مِن أطفالِهِم إذا وَقَفْتُ... تَجْتَمِعُ أنْفاسُهُم كَسَحابَةٍ فَوْقِي، ثُمَ تُمْطِرُ على وَجْهي زَنَخَ الرَّوائِحِ وَعَطَنَها...

أخَذْتُ أُوَلْوِلُ عَساهُم يَسْمَعونَ، وأعْتَذِرُ لَعَلَّهُم عَنْ دُخولِي بَغْيرِ إذْنٍ

يَصْفَحـونَ.. ولَكِنَّ حَظِّـي كانَ أعْثَرُ مِنْ حَظِّ صُرْصورٍ بَـيْنَ أقْدامِ البَشَرِ، فأنا مع الأسَـفِ لا أمْلِكُ سِـلاحَ بَعْثِ الخَوْفِ والِاشْمِئزازِ في النُّفوسِ كما تفعل الحشرات.

... وتَجَمْهَـر أولَئِـكَ القَوْمُ حَـوْلي بِخُطُواتٍ مَحْسـوبَةٍ في صُفوفٍ مائِلَةٍ ومُتَداخِلَـةٍ، حَتَّـى وَجَدْتُ نَفْسي أجْثو عـلى رُكْبَتَيّ في مَرْكَـزِ نَجْمَةٍ هائِلَةٍ تَرْسِمُها أجْسادُهُم وتُزَيِّنُها شُعْلاتٌ تَسْتَقِرُّ فَوْقَ رؤوسِهِم.

***

رَنا أميرَةُ اليَنبوع

اِعْتَقَـدَ «ريانُ» أَنِّي قد أَلْقَيْتُ بِنَفْسي في الينبـوع، كَعُصْفورَةٍ تَقْتاتُ مِنْ فَضَلاتِ جِيَفِ الفَرائِس بَيْنَ فَكَّيِّ الزَّاحِفِ السَّـبَّاح، ولم يَعْلَم أَنَّهُم لَيسـوا إِلَّا حُرَّاسًـا يَحِفُّونَ ضَيْفَتَهُم بِالْكَرَمِ في حِماهِم.. فَلَا جَسـارَتي كانَ لها داعٍ، ولا رَوْعُهُ كان مُبَرَّرًا...

فَأنـا لَمْ أَلْـقِ بِنَفْسي إلى التَّهْلُكَةِ كَما ظَنَّ وظَنَنْتُ، بَـل أَلْقَيْتُ بِها إِلَى بُقْعَةٍ يُحيطُها البَنَفْسَجُ والأَحْجارُ الكَريمَةُ، هَواؤها يَشفي الرُّوحَ، ولِتُرْبَتِها عَبيرُ الجَنَّـةِ وَلِفَراشـاتِها أَنْغامٌ تُميـلُ الأفئدة.. يَسْـبَحُ فيها بَـطُّ الماندرين، وتَحومُ فَوْقَهـا طيُـورُ الرِّفْـرافِ بَيْنَ سُـحُبٍ كَقِطَعِ الحَلْـوَى... أَرْتَـعُ في ضِيافَتِها كالسَّلاطينَ، وأَتَدَلَّلُ كالأميراتِ... لها ماءٌ يُأْمَرُ فَيُطيعُ، وفيها زَهْرٌ رَحيقُهُ الـدَّواءُ وبَتائِلـهُ الحَرير، وحُرَّاسُـهُ خُدَّامُ سـاكِنِ اليَنْبـوعِ، ويَدُ الْعَـوْنِ لِمَنْ يَسْألون....

فَحِينَ سَـمِعْتُ مُسـاءَلَةَ «ياسـمين» لِأبيها ونَحيبَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ؛ رُسِـمَ لِي الطَّريـقُ إِلَيْهِما لِأخرُجَ فَوْرًا بِالنَّجْدَةِ العاجِلَةِ كَالْمُسَـيَّرَةِ... وفَهِمْتُ حينَها أَنِّي قَدْ تَبَوَّأْتُ مَنْصِبَ طَبيبِ الجَرْحَى وصِرْتُ حُضْنَ الخائِفين، وأصبَحْتُ من حـورِ خِيامِ هّذِهِ الجَنَّـةِ ومِن لَآلِئِها الطَوَّافَـةِ المَنْثـورَةِ... فَأَطْلَقْتُ أُذُنَيَّ لِكُلِّ مُسْـتَغيثٍ وآنٍّ، وتَجَهَّزْتُ بِالآنِيَةِ والكُؤوسِ لِيُسْقَى المَرْضَى ويَغْتَسِلَ المُلَوَّثونَ..

بَوّابَةُ علي بابا

شيري: أهِيَ «باربرا» مَنْ دَلَّكَ على هذه الرحلة الملعونَة؟

شاهين: كيفَ تَقولينَ هذا و«فيروزُ» هِي الَّتي طَلَبَتْ مِنْكِ المَجيء؟!

- لا تتلاعَب مَعي فَقَد أخْبَرَتْني كُلَّ شَيءٍ.

- ألا وهو؟

- أنتَ مَنْ نَظَّمَ هذه الرِّحْلَةَ، وأقْنَعتَها و«فارسَ» بِالحضور معنا ثُمَّ طَلَبْتَ مِنْها أن تُقْنِعَني كَذَلِكَ، لِأنِّي -على حَسبِ قَوْلِكَ- لَمْ أرْغَبْ في القُدوم...على الرَّغْمَ مِنْ أنَّكَ في الحقيقَةِ لَمْ تَعْرِضْ عَلَيَّ الأمْرَ مِنَ الأساس..

- ما هذا الهُراء؟ ولِمَ لا أسْأَلُكِ مُباشَرَةً؟

سُليمان: أتَعْرِفُ امْرَأَةً تُدْعَى «باربرا»؟ هل هي مكسيكِيَّة؟

شاهين: ولِماذا لَمْ تَسْأليني؟

شيري: هي طَلَبَتْ مِنِّي ألَّا أواجِهَكَ بِشيءٍ بعد أنِ اسْتَحْلَفْتَها على حِفْظِ سِرِّكَ..

سُليمان: كَيْفَ هو شَكْلُ «باربرا»؟

شاهين: سِرِّي؟! يالها مِن كاذِبَةٍ ومَريضة!

شيري: ولِمَ سَتَكْذِبُ هي و«فارس»؟

شاهين: أفارِس أيضًا تَفَوَّهَ بِتِلْكَ الأكاذيب؟ ماذا يُريدان؟ خَلْقَ المشاكِلِ بَيْنَنا؟

سُليمان: ألا تَسْمَعُني؟
شاهين: بلى أسْمَعُكَ.
سُليمان: ولِمَ تتجاهَلُني؟
شاهين: لِمَ تَسْألُ عَنْها؟ لا أفهَم.
سُليمان: كانت زَوْجَتي تَعْمَلُ مَعها.
شاهين: رُبَّما يكونُ تَشابُهَ أسماء.
سُليمان: هل قابَلْتَها في مِصر؟
شاهين: أجل.
سُليمان: وأينَ تَعيشُ في الأساس؟
شيري: لقد زارَها شاهينُ مُنْذُ شُهور في جزيرَةٍ في الكاريبي تُدْعي كارياكو أو كاريوكي.. شيء من هذا القبيل.
سُليمان: إنَّها هي.. بالتَّأكيدِ هي!. فقد كانَتْ تَسْتَوْرِدُ مُنْتَجاتٍ كيماوِيَّةٍ مِنْ خِلالِ مَكْتَبِ زَوْجَتي، وكانَت تَتَرَدَّدُ كثيرًا على مِصْر حَتَّى نَشَأتْ بَيْنَهُما عِلاقَةُ صَداقَةٍ قَوِيَّةٍ...
شاهين: ألَا رَكَّزْنا في إيجادِ طَريقَةً لِلْخُروجِ قَبْلَ أنْ نَتَجَمَّدَ؟
شيري: لا يَبْدو عَلَيْكَ أيُّ بَوادِر للتَجَمُّد حَتَّى.
شاهين: : غَيرَ أنَّ عِظامي تَتَكَسَّرُ؟!
شيري: بل إنَّكَ تَتَظاهَرُ بِذَلِكَ الأمر.. أُقسِمُ أنَّ هُناكَ شَيئًا تُخفيه عَنَّا!
شاهين: لِمَ تُصِرِّينَ على التَّشْكيكِ في طولَ الوَقْتِ هكذا؟
سُليمان: كيفَ تَعَرَّفْتَ عَلَيْها؟

شاهين: على مَنْ؟

سُليمان: باربرا..

شاهين: أووووفف.. ألا زِلْنا نَتَحَدَّث في هذا الأمْرِ!

شيري: كانَت حَبيبَتُهُ ولَكِنَّهُما قد افْتَرَقا مُنْذُ شَهْرَيْنِ، يَوْمَ عيدِ ميلادِها..

سُليمان: ولَكِنَّ عيدَ ميلادِها كانَ قَبْلَ سِتَّةِ أشْهُرٍ على الأقَلِّ، قَبْلَ وفاةِ زَوْجَتي.. فَقَدْ دَعَتْ ثَلاثَتَنا إلى الحَفْلِ، وأيضًا تَعَرَّفْنا في ذلك اليوم على «حَمْزَةَ».

شيري: أماتَتْ زَوْجَتُكَ؟

سُليمان: قُتِلَت.

شيري: يا إلهي! ألا تَعلَمُ «ياسمينُ» بهذا الأمر؟

سليمان: بَلى، ولَكِنَّها لا تُريدُ أن تُصَدِّقَ ما حَدَثَ.

شيري: يالها من مِسكينَة!

سُليمان: كَمْ عُمْرُ «باربرا»؟

شيري: أظُنُّ أنَّها تَكْبُرُ أخي بِعِشْرينَ عامًا إنْ لَمْ يَكُنْ أكثر.

سُليمان: إنَّها هِيَ حَتمًا!

.. أفْرَغ «شاهينُ» ضَجَرَهُ وسُخْطَهُ في الفَتْحَةِ الجانِبِيَّةِ لُحُفْرَةِ القَبْرِ المَهْجورِ، وهو يَحْشُرَ ثَلاثَةَ أصابِع فيها على أمَلِ أنْ تَتَمَدَّدَ مُجَدَّدًا فَتَسِعَ أجْسادهُم، ولَكِنَّ أصابِعَهُ قد خَرَجَتْ بالدَّم والجُروح... فَمَدَّت أُخْتُهُ يَدَها بَعْدَهُ عَسَى البَرَكَةَ تَحِلُّ بِها، ولَكِنَّ البَرَكَةَ قَدْ أبَتْ عَلَيْها فَما سَلِمَتْ مِنَ الخُدوشِ هِيَ الأُخْرَى، بل وزادَتْ عَلَيْها قَرْصاتُ الحَشَراتِ ولَدغاتُ

العَقارِب، فَصَرَخَتْ مِنَ الألَمِ وسَبَّتْ أخاها ولَعَنَتْ... ثُمَّ جاءَ «سُلَيمانُ» لِيَأْخُذَ نَصيبَهُ مِنَ شَرَفِ الغَباءِ هُو الآخَر، ولَكِنَّ الْفَتْحَةَ على غَيْرِ المُتَوَقَّعِ قد اسْتَحَتْ مِنْهُ وعامَلَتْهُ بالإحْسانِ.. فهذا هو أبو مَنْ كانَت ضَيْفَةَ القَبْرِ، وهو العائِدُ مِنَ المَوْتِ الشَّارِبُ مِنَ البُقْعَةِ المُقَدَّسَةِ.. وهو الَّذي قد رَأى جُثَّتَهُ فَكَذَّبَ خَبَرَ وَفاتِهِ وتَكَبَّرَ عَلَيْه، ثُمَّ الْتَزَمَتْ روحُهُ مَحَطَّ قَدَمَيّ ابْنَتِهِ إلى أنْ غَلَبَتِ المَوْتَ بِعِنادِهِ.

...واتَّسَعَتِ الفَتْحَةُ في دَقائِق وكأنَّها بَوَّابَةُ «علي بابا «مَع فارِقٍ بَسيطٍ، فَمَغارَةُ البابا لَمْ تَسْتَقْبِلْهُ بأمواجِ النَّارِ وألْسِنَةِ اللَّهيبِ وقُرْصِ الشَّمْسِ المُسْتَقِرِّ على سَطْحِ الجِبال، ووَجْهِ «حَمْزَةَ» المُحْتَرِقِ وجَسَدِهِ الذَّائِبِ على مَوْقِدٍ تَنْضُجُ عَلَيْهِ الصُّخورُ في مَطْبَخِ نارِيٍّ فَسيح... ولَمْ يَحْظَ الثَّلاثَةُ بِفُرْصَةِ اِخْتِيارِ الدُّخولِ مِنْ عَدَمِهِ، إذ أنَّ الفَجْوَةَ قَدِ امْتَصَّتْهُم بِلا نِقاشٍ لِتَقْذِفَ بِهِم في الْقُرْنِ العَظيمِ لِمَمْلَكَةِ النَّارِ الجَليلَةِ...

لِقاءُ الحَبيبَين

كُنْتُ قد ظَنَنْتُها مَلاذي وأمْني، بَعْدَ أنْ نَجَحْتُ أنا و»خَلْدونُ» في جَعْلِها عَميقَةً جِدًّا.. ولقَد أحْكَمْتُ على جَسَدي غطاءً نَسيجُهُ الأوْراقُ والأغصانُ وصِغارُ الأحْجارِ... فَلِماذا لَمْ أنْجُ وأنا قد أَخَذْتُ بِالأسبابِ، ولِماذا بَعدَ طولِ الِانتِظارِ لَمْ يَحْضُرِ الباب؟

... غَرَسَ المَخْلوقُ المُتَسَلِّلُ عَبْرَ التُّرْبةِ أظافِرَهُ في عُنُقي، حَتَّى سَمِعْتُ نَضْخَ دَمِي وشَمَمْتُ رائِحَتَهُ.. وذلك قبل أن يَسيلَ على وَجْهي مُخاطٌ لَزِجٌ كَريهُ الرَّائِحَة، وكَم كُنتُ أرجو أن يَكونَ لُعابَ الْوَحْشِ لَيسَ إلَّا! ولَكِنَّهُ كانَ شَيْئًا آخَر...

لا أدري إن كانَ رَأسي قد داخَ مِنَ الخَوْفِ أم مِنَ النَزْفِ، أم مِن رائِحَةِ المَخلوقِ وهَيئَتِهِ.. واستَمَرَّ بيَ الحالُ مُتَرَنِّحًا تحتَ قَبضَتِهِ حَتَّى عَصَرَني ثُمَّ رَجَّني رَجَّةً قَضَت على بِقايا الوَعْيِ في عَقْلي، فَدَخَلْتُ أخيرًا في غَيْبوبَةٍ بعد أن كُنتُ أصيحُ في الفَراغِ وأسْتَغيثُ بِالْوُحوشِ الأُخْرَى.

... هل أحْلَمُ بِها أمْ أنِّي قد اسْتَفَقْتُ وهيَ بِالْفِعْلِ أمامي؟ ملابِسُها مُبْتَلَّةٌ وبَشَرَتُها مُشِعَّةٌ وشَعْرُها يَفوحُ بِالعَنْبَرِ والْمِسْكِ، وعلى رَقَبَتِها نَجْمَةٌ بَيْضاءُ... أهذِهِ «رَنَا» خَطيبَتِي!.

أفْلَتَني فَورًا الكائِنُ المُريعُ وهو يَحْتَضِرُ مُهْتَزًّا ومُزَلْزِلًا للأرضِ من تحته، حَتَّى أحْدَثَ فيها الشُّقوقَ وأوْقَعَ عَلَيْها الجذوعَ... لَمْ أحْظَ الَّذي قَتَلَهُ إلَّا

بَعـدَ أن سَـقَطَ على وَجْهِهِ، وظَهَـرَ مِنْ خَلْفِهِ ما يُشْـبِهُ التِّمْسـاحَ المُخَضَّبَ بالـدَّم... اقتربت مِنِّي حَبيبَتي وقامَتْ بِسَـكْبِ المـاء الأبيض على جَرْحي ثُمَّ سَـقَتْني ما يُشْـبِهُ العَسَلَ، وقالَت لي بِصَوْتٍ مَلائِكِيٍّ لَم أسمعهُ من قبل؛ «فَلْتُشْبِهْ جَديدي ولتَنْسَ قَديمي، ولتَكُنْ جَديدَكَ ولتَهْجُرْ قَديمَكَ»

«مِـنْ أيْنَ جِئْتِ وكَيْفَ نَجَوْتِ؟»... سـألتُها وأنا أتأمَّـلُ نَضرَةَ النّعيمِ في وَجهِهـا المُطِلِّ عَلَيّ كالقَمَرِ من بين السَّـحابِ، بينـما أنا مُمَدَّدٌ على ظَهري أشعُرُ بِالحياة تَسري من جديدٍ في عُروقِي من أثَرِ ما شربتُ.

قالـت بابتسـامةٍ سـاحِرَة وصَـوتٍ مُغَـرِّدٍ: «لقـد كُشِـفَتْ لِي الأسْرارُ وعُلِّمْتُ مِنْ خَبايا الطُّرُقِ والأبواب ما لا تَعْلَمون»

«كيف؟ ولِماذا؟»... تَسـاءَلتُ بينما أُحاوِلُ الجُلـوسَ بِدَفْعَةٍ رَقيقَةٍ مِنها على ظَهري.

- أنا الآنَ سَيِّدَةُ اليَنْبوعِ وأميرَةُ المُخَلِّصينَ.

- لا أفْهَمُ شَيْئًا مِنْ حَديثِكِ!

«ولَنْ تَفْهَمَ أبَـدًا»... قالَت وهي تُغْمِضُ عَيْنَيْها وتَفْتَحُهُما بِبُطْءٍ كَالأُمِّ الحَكيمَةِ ذات الثَّمانين عامًا.

سَـألتُها وأنا أقوم مُستَقيمًا على قَدَمَيّ، بِلَهْفَةِ الطِّفْلِ وعَيْناي على وشك الخُروجِ من مَكانيهما؛ «أتَعْلَمينَ المَخارِجَ وتَعرفين في أيِّ اتِّجاهٍ سَنَسيرُ؟»

- سَنَسيرُ إلى حَيْث تأخُذُنا التَّأوُّهاتُ والاِسْتِغاثاتُ..

اِبتَعَدتُ لِلخَلفِ بِضعَ خُطُواتٍ وأنا أسألُها: «ما الَّذي حَدَثَ لَكِ؟»

«أنـتَ مُلْزَمٌ الآنَ بِاتِّباعي دونَ أسـئِلَة»... أجابَتْ بِصَـوْتٍ أجَشٍّ آمِرٍ بَعدَ أن تَحَوَّلَتْ عَيْناها الصَّافِيَتَانِ إلى مُقْلَتَيْنِ فارِغَتَيْنِ بَليدَتَيْنِ.

– حَقًّا؟! إذًا أنا الآنَ عَبْدُكِ؟!!

– بل أنتَ عَبْدٌ للمَمْلَكَة.

.. صَرَخْـتُ في ثَوْرَةٍ على أمَلِ أن تَسْـتَفيق من تِلكَ الأوهامِ قائِلًا: « تَبًّا لِهذه التَّخاريف! لقد سَئِمتُ من هذه اللُّعْبَةِ، فَسأخرُجُ مِن هُنا وسَتَخْرُجينَ مَعي، شِئتِ أم أبَيْتِ!»

اللّفظَةُ الأخيرةُ للبُركان

«أَشْعُرُ بِالحَياةِ تَسْري في جَسَدي مُجَدَّدًا.. أُدْرِكُ أَنِّي سأحْتَرِقُ عَمَّا قَريبٍ، ولَكِنِّي مع ذَلِكَ لا أَسْتَطيعُ مَنْعَ نَفْسي مِنَ الِاسْتِمْتاعِ بِهذا الدِّفْءِ» .. قالَت «شـيري» مُتَنَهِّـدَةً وَمُتَبَسِّـمَةً بينـما تُغْمِضُ عَيْنَيْهـا وتتمرّغ بِجَسَـدِها على الأرضِ المُلْتَهِبَةِ.

شاهين: أهو حَيٌّ؟

سُليمان: أظُنُّ ذَلِكَ.

شاهين: حَمْزَة!. هَلْ تَرانا؟

حمزة: أما زالَ جَسَدِي مَوْجُودًا، ووَجْهي في مَكانِهِ؟

شاهين: عفوًا؟!

حمزة: أنا لا أَشْعُرُ بِشَيءٍ..

«هل رَأَيْتَ ابْنَتي؟ أجاءَتْ إلى هُنا؟»... سـأَلَ «سُليمانُ» «حمزَةَ» وكأَنَّهُ لا يَرَى مَصابَهُ وحُروقَهُ وبلاهَته.

- لا أعْرِف.

«أوووفـف!! بَدَأْتُ أَشْـعُرُ بِالأَلَمِ مِنْ هـذه الحَرارَةِ المُتَوَحِّشَـةِ، ألا تَتَأَلَّمُ مِثلي؟»... صَرَخَتْ «شـيري» وهي تسـأل أخاها وتنتفض، بينما علاماتُ الألم والانزعاج الشديدَيْنِ بادِيةٌ على وجهها.

- بالتَّأكيدِ! فأنا على وَشكِ الذَّوَبانِ.

- ولَكِنْ لا يَبْدو عَليْكَ ذَلِك.

ضَجَّ «شـاهين» مُحْتَجًّا وهو يقول: «أَسَـتَعودين لِهذا الهُراءِ مُجَدَّدًا؟!»..

بينـما الحنقُ مُسَـيْطِرٌ على ملامِحِهِ والجنون قد ألقى بِمُقْلَتَـيْ عَيْنَيْهِ إلى خارج وجهه لِيَسْـتَقِرَّ مكانَيْهِما... ثُمَّ نَظَرَ إلى «سُـليمان» بِنَفسِ الوَجْهِ سـائِلًا، أو آمِرًا، وقال له: « مَنْ سَيَحْمِلُه؟»

- عَمَّنْ تَتَحَدَّث؟

- أَتَحَدَّثُ عن «حَمزة»، فلَنْ نَتْرُكَهُ وَنَذْهَبَ بِالتَّأكيد، سَنَأْخُذُهُ مَعَنا.

- إلى أينَ؟ ومِنْ أينَ؟

- سَنَقْفِزُ في البُرْكانِ.

- ماذا؟! أَلَمْ نُقْذَفْ مِنْهُ مُنْذُ قليلٍ؟

- ومِـنْ أجْلِ ذَلِكَ سَـنَقْفِزُ إلى داخِلِهِ مُجَدَّدًا، لَعَلَّـهُ يذهبُ بِنا إلى زاوِيَةِ انكسارٍ جديدة.

- زاوِيَة انكسار؟!

- لا وَقتَ الآنَ لِلشَّرْحِ.

- ألا يُمكِنُ أن يُؤدِّي بِنا إلى ما هو أسْوَأُ وأضَلّ سَبيلًا؟

«ليسَ هُناكَ ما هُوَ أكْثَرَ بَشاعَةً مِن هذا الجَحيم!»... نادَتِ المسكينَةُ بينما تبكـي وتقفز في مكانِها كالسَّـمَكَةِ المُحْتَضِرَةِ وتسـتغيث قائلة: «أَخْرِجانِي مِنْ هُنا سَريعًا قبلَ أنْ أتَحَوَّلَ إلى قِطْعَةٍ مُتَفَحِّمَةٍ مِثْلَ حَمْزَة!»..

«كيفَ وَصَلْتَ إلى هُنا؟»... سـأَلَ «شـاهينُ» «حمزَةَ» وهو يَهُزُّهُ ويُقَلِّبُهُ كَالفَطيرَةِ.

– قُذِفْتُ مِثْلَكُمْ مِن جَوْفِ البُرْكانِ مِنْ خِلالَ نَفَقٍ أو دَوَّامَةٍ، لا أعلَمُ... ووَصَلْتُ إلى هُنا وأنا أدورُ كَجَوْرَبٍ في غَسَّالَةٍ كهربائِيَّةٍ.

– وأينَ كان ذلكَ النَّفَق؟

– في الصَّحْراء.

سُليمان: هذا يَعْني أنَّ لِقَذائِف فُوَّهَةِ البُرْكانِ هذه أكْثَرَ مِنْ مَصْدَرٍ.

شاهين: هل كانَ مَعَكَ أحَد؟

حمزة: حينَ وَصَلْتُ إلى هُنا، كان «بَكْرُ» مَوْجودًا قَبْلَ أنْ يَسْقُطَ في قَلْبِ المَخْروطِ وهو يَصْرُخ.

– وهل قالَ لَكَ شَيْئًا؟

رَدَّ «حمزة» وهو يَشُدُّ شعرَه بِيَدَيْهَ اللّتَيْنِ لَم يَكُن يَعْلَمُ بِوُجودِهِما قائِلًا: «لا لَمْ نَتَحَدَّثْ، فَلَمْ أحْظَهُ إلَّا أثْناءَ وُقوعِهِ».. ثُمَّ أتْبَعَ مُتَذَمِّرًا ومُتَسَوِّلًا في نَفسِ الوَقتِ قائِلًا: «ألا رَمَيتُم بي في الْفُوَّهَةِ أرجوكم! فلا قُدْرَةَ لي على الإحْساسِ بِجَسَدي أو التَّحَكُّم في عَضَلاته!»

سُليمان: أنا لَنْ أقْفِزَ مَعَكُم، لا أسْتَطيعُ فِعْلَ ذَلِك.. كَما أنِّي لا أشْعُرُ بِالْحرارَةِ مِثْلكُم، فَلِمَ قد أُخاطِرُ بِنَفْسي هكذا؟

شاهين: ومِمَّ أنتَ خائِفٌ؟ أما شَرِبْتَ الرَّحيقَ واكْتَسَبْتَ المُناعَةَ؟ فَليسَ هُناكَ ما قَدْ يَضُرُّك.

شيري: ألا تَرْغَبُ في العُثورِ على «ياسمين»؟ فَلِمَ تَحْبِسُ نَفْسَكَ هُنا؟

– لَعْنَةُ الله عَلَيْكُم أيُّها المُتَبَلِّدينَ! أخْرِجوني حالًا مِنْ هُنا!

مَثوَى خَلدون الأخير

أَتَى طِفْلٌ مِنْ أَطْفالِ المَرَدَةِ عَنْ يَميني وأُخْرَى عَنْ يَسارِي، وسَحَباني على الأَرْضِ كَسَاقِيَةٍ مَجْرورَةٍ خَلْفَ بَقَرَةٍ ذَلولٍ.. فَكُنْتُ أَحْتَكُّ في الصُّخورِ بِوَجْهي، ثُمَّ صَدْري وبَطْني يَليهُما رُكْبَتاي وقَدَماي، ثُمَّ أنزل بشكل عكسيٍّ مُرتَطِمًا بِأَعْلَى رأسي عَلَى الأَرْضِ لِأُعيدَ كَرَّةَ الِاحْتِكاكِ مُجَدَّدًا.. ظَنَنْتُ في البِدايَةِ أَنَّهُما يَلْهُوانِ بي ويَلْعَبانِ مَعي، ولَكِنْ في حَقيقَةِ الأَمْرِ كانَ أَمْرُ تَحْريكِ الأَسْرَي كَالإلكتروناتِ في دوائِر وحَلَقاتٍ عَشْوائِيَّةٍ هكذا، لَيْسَ إِلَّا جُزْءًا مِنْ التَّقاليدِ والشَّعائِر في دِيانَتِهِم...

وأخيرًا وَصَلَ الطِّفْلُ والطِّفْلَةُ بي إلى النَّخْلَةِ المَنْشودَةِ، وَسط قَرْعِ طُبولِ آبائِهِم ودُفوفِ أَجْدادِهِم وأَجْراسِ أُمَّهاتِهِم، حتّى أدرَكتُ أَنِّي أُزَفُّ إلى لِقاءٍ مَجيدٍ ومَهيب..

تَفَوَّهَتِ الطِّفْلَةُ العِمْلاقَةُ بِما يُشْبِهُ الكَلِمات، حَتَّى نَسيتُ بَلْوَتي وضَحِكْتُ في سَريرَتي مِنْ غَرابَةِ ما أَسْمَع... وبَعدَ أَنِ انْتَهَتْ مِن خُطْبَتِها القَصيرَةِ أَفْلَتَتْ ذِراعِي هِيَ وزَميلُها فَجْأَةً، لِأَسْقُطَ على أَنْفِي الَّذي كان قَدْ تَقَرَّحَ وتآكَلَ مَعَ كامِلِ جِلْدِي مِنْ أَثَرِ رِحْلَةِ الِاحْتِكاكِ الطَّويلَةِ مَعَ الأرض..

وبِمُجَرَّدِ أَنِ انْتَهَيا مِنَ العَبَثِ بي وإلقاءِ قَصائِد السِّحْرِ على مَسامِعِي، أَحْسَسْتُ بِأَلَمٍ قاتِلٍ في أُذُنَيَّ ومُؤَخِّرَةِ رَأْسي، وكَهْرَباء تَسْري في جِهازِي العَصَبِيِّ كُله، ثُمَّ شَعَرْتُ تدريجِيًّا بِرَأسي يَتَّسِعُ ويَتَضَخَّمُ كالبالون.

... بَدَا مِنْ وَراءِ النَّخْلَةِ الَّتي أعلمُ أنِّي قد رأيْتُها مِنْ قَبْل، ضَوْءٌ شَـديدُ السُّـطوعِ مِنْ سَـيْفٍ يَحْمِلُهُ رَجُلٌ في نَفْسِ طولي وحَجْمي تَقْريبًا.. وأُوقِنُ كَذَلِكَ أنَّ هذا السَّـيْفَ الَّذي يَحْمِلُهُ هو نَفْسُ السَّـيْفِ الَّذي كانَ مَغْروسًـا في النَّخْلَةِ، والَّذي قَدْ تَسَبَّبَ في الزَّلْزَلَةِ والحَرْقِ بعد أن حاوَلتُ انتِزاعَهُ...

كانَ شَابًّا وَسيمًا لا شَيءَ غَريبًا في هَيْئَتِه.. ولا يُفَرِّقُهُ عَنِّي سِوَى تَاجٍ فَضِيٍّ على رَأْسِهِ لا يُزَيِّنُهُ غَيْرُ دُرَّةٍ بَنَفْسَجِيَّةٍ شَديدَةِ الصَّفاءِ وكبيرة، وصَوْلَجانٌ في يَدِهِ اليُسْرَى والسَّيْفُ في يَدِهِ اليُمْنَى..

تَحَدَّثَ مَعِي السَّيِّدُ الحاكِمُ بِلُغَةٍ بَشَرِيَّةٍ لَمْ أفْهَمْها، أظُنُّ أنَّهُ كانَ يَتَحَدَّث الإسْـبانِيَّةَ... فاسْـتَقَمْتُ عـلى رُكْبَتَـيَّ وأشَرْتُ إلَيْهِ مُوَضِّحًـا أنِّي لا أفْهَمْ كَلامَـه، فَأعادَ حَديثَهُ بالإنْجليزِيَّةِ سـائِلًا عَمَّنْ أرْسَـلَني إلَيْهِم في وَقْتٍ لا تَحْتاجُ المَمْلَكَة فيهِ لِإنْسانٍ..

وبَعْدَ أنِ اسْتَمَعَ لِما قَصَصْتُ عَلَيْهِ باخْتِصارٍ، أشارَ إلى خُدَّامِهِ بالصَّوْلَجانِ ثُمَّ تَحَدَّثَ مَعَهُم بِلُغَتِهِم... فَبَرَزَ فَوْرًا مِنْ تَحْتِ الأرْضِ ومِنْ خَلْفِ الجِبالِ مَزيـدٌ مِنَ الخُـدَّامِ يَموجُ بَعْضُهُم في بَعْـض، واجْتَمَعوا مَعْ مَـن هَبَطوا مِنَ السَّماءِ ثُمَّ تَهافَتوا عَلَيَّ جَميعًا، كَضِباعٍ مُتَلَهِّفَةٍ لالتِهامِ أحْشاءَ فَريسَتِها.

... تناقَلـوني في صَخَـبٍ على أكُتافِهِم ورُؤوسِـهِم إلى أنْ بَلَغوا بِي سَـدًّا حَدِيدِيًّا صَلْدًا لَهُ بابٌ خَشَبِيٌّ صَغير، ودَفَعوا بِي إلى داخِلِهِ بَعْدَ أنْ وَضَعوا الأسـاوِرَ الغَليظَةَ في مِعْصَمَيّ... ثُمَّ قامـوا بِإجْلاسي على الأرضِ وتَثْبيتِ أسـاوِرَ مِعْصَمَيَّ في الحائِطِ الَّذي يَتَّكِئُ ظَهْـري عَلَيْهِ، وأحْكَموا بعدَ ذَلِكَ الإغْلاقَ عَلَيَّ مِنَ الخارِجِ بِسَلاسِلَ ومَفاتيح وأقفال لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى...

كانَ ظاهِـرُ السُّـورِ شاسِـعًا وباطِنُـهُ الحَقيقِيُّ لَيْـسَ إلَّا حُجْـرَةً ضَيِّقَةً، حَصَبُها جَماجِمُ البَشَرِ وعِظامُهُم، وسَـقْفُها الجُلودُ المَدْبوغَةُ والمَلابِسُ الرَّثَّةُ المُتَهالِكَةُ...

جَلَسْتُ مُكَتَّفَ اليَدَيْنِ أبْكي وأنوحُ كَاليَتيمِ، وأتَذَكَّرُ عِنادِي الَّذي قد جَعَلَني أتْـرُكُ «ريان» لأزْحَفَ عَبْرَ النَّفَق.. لَيْتَني بَقَيْتُ مَعَهُ وصَبِرْتُ عَلَى روائح وأصْواتِ وُحوشِـه، ويالَيْتَني تَحَمَّلْتُ حَبْسَ الأنْفاسِ والِاخْتِباءَ في الحُفْرَةِ كالجرذان!

ذلك الحَقيرُ قَدْ تَمَنَّى لي حَظًّا غيْرَ سَـعيدٍ، وها هِي أمانيهِ تَتَحَقَّقُ... فَتَبًّا لَـهُ ولِلْحَظِّ الغابِـرِ وللصُّدْفَةِ الَّتي قد عَرَّفَتْنِي كَذَلِكَ بِسُـلَيْمان! لِأجيءَ مَعَهُ إلى أرْضِ الهَـلاكِ هذه.. فَلَوْلا دَرَسْـتُ عِلْمَ الآثار وتَعَرَّفْـتُ عَلَيْهِ، لَكُنْتُ الآنَ أسْرُدُ عـلى أطْفـالي الحِكايات وأتناوَلُ مَع زَوْجَتِي العَشـاء، وأُهَاتِفُ أبَوَيّ بينما أنا مُمَدَّدٌ على الأريكة أحْتَسي الشاي...

أشْـعُرُ بِشَوْقٍ شَـديدٍ إلَيْهِم، وأتَحَسَّرُ على تَفْريطي في السَّاعاتِ والأيَّام خارِجَ البَيْتِ لأبْتَعِدَ عَنهُم مُتَعَمِّدًا.. فَكَمْ تَمَلَّلْتُ مِنْ إزْعاجِ أطْفالي وتَمَرَّدْتُ عـلى طَبْخِ زَوْجَتي وتَأفَّفْتُ مِـنْ طَلَباتِ والِدَيّ! فلَقَدْ كُنْـتُ في النَّعيم ولَمْ أسْتَسِـغْهُ إلَّا بَعْـدَ فُقْدانِـه... لا شَـكَّ أنَّ زَوْجَتـي في هذه السَّـاعَةِ تَظُنُّ بيَ الظُّنـونَ ويُؤمِنُ أطْفالي أنِّي قَدْ هَجَرْتُهُـم، ويَفْتَرِضُ أبَوايَ أنِّي أتَهَرَّبُ مِنْهُما كَعـادَتي.. لا يَعْلَمونَ و لَنْ يَعْلَموا أنِّي الآنَ عالِقٌ في عالَمٍ خَفِيٍّ، ومُحْتَجَزٌ في زَمَنٍ مُبْهَمٍ.

اللِّقاء

سَـقَطْنا في بالوعَةِ قَعْرِ البُرْكانِ لِنُكْمِـلَ رِحْلَتَنا مِنْ خِلالِ أنْبوبٍ طينِيٍّ قامَ بِضَحِّنا كَمِياهِ الصَّرْفِ، لِيَقْذِفَ بِنا أخيرًا إلى اليَنبوعِ السِحْرِيِّ...

انِطَفَـأتْ نيرانُنـا وخُلِقَـتْ جُلـودٌ جَديـدَةٌ لَنـا بِمُجَـرَّدِ أنْ طَفَوْنا على سَـطْحِهِ... فقـد كانَ لِمائِهِ الأبْيَض شَـديدِ النَّقـاءِ طَعْمٌ كالعَسَـلِ ورائِحَةٌ كالزَّهْـرِ، تُبَطِّنُهُ حصواتٌ بَنَفْسَـجِيَّةٌ وتَسْـكُنُهُ تَماسـيح أليفَةٌ بَهِيَّـةٌ، تَبْعَثُ الشَّـكَّ في النَّفْـسِ فَيَلْتَبِـسُ الأمْرُ على مَنْ يَراها فلا يَعُـود يَعْرِف؛ إنْ كانوا تَماسيحَ أمْ أُمَراء يَرْتَدُونَ حُلَلَ الْبَأْسِ والقُوَّةِ..

خَرَجْنـا مِـنَ اليَنْبـوعِ مَغْمورِينَ بقُـوَّةِ الرُّوحِ وبَراءَةِ الجَسَـدِ وسـلامَةِ النَّفْسِ، وتَطَوَّرَتْ حَواسُّنا حِدَّةً وسَعَةً وإدْراكًا، فَصارَتْ عُيونُنا كالْعِقْبان وأُنوفُنـا كَالدِّبَبَةِ وسَـمْعُنا كَالدَّلافين، وأصْبَحْنا كَالـرُّوحِ الَّتي تَتَحَرَّرُ مِنَ الجَسَدِ فَتَرَى ما لا تَرَى العَيْنُ وتَسْمَعُ ما لا تَسْمَعُ الأذُن...

تَعَجَّبْـتُ مِـنْ أمْرِ «سُـليمان» الَّـذي كانَ قَـدْ شَرِبَ مِنَ رَحيـقِ الزَّهْرِ واغْتَسَـلَ بِماءِ اليَنْبوعِ قَبْلَنا، فَكيف لَمْ يَشْـعُرْ بِهذا الرُّقِـيِّ والتَّغْيِيرِ حينَها؟. هُو يُبَرِّرُ الأمْرَ بِأنَّ أرْضَ البَنَفْسَـجِ هي الـسِّرُّ فيما حَدَثَ لَنا، وأنَّهُ لا يَكْفي الِاغْتِسـالُ بِـماءِ اليَنْبوعِ لِاكْتِـمالِ التَّحَـوُّلِ، طَالَمَا أنَّنا لَا نتنفـس هواء هذه البُقْعَةِ البَنَفْسَجِيَّةِ...

ولَكِنِّي لا أشْعُرُ بِراحَةٍ نَحْوَهُ وأظُنُّ أنَّ هُناكَ ما يَكْتُمُهَ عَنَّا، فَهوَ مَا زالَ

بِنَفْسِ الوَجْهِ الَّذي كانَ بِهْ عِنْدَما الْتَقَيْناهُ في أرْضِ الجَليدِ، بِاسْتِثْناء نَجْمَةٍ بَيضاء جَديدَةٍ قد ظَهَرَتْ على رَقَبَتِهِ في اليَنْبوعِ، كالَّتي ظَهَرَتْ على رَقَبَتي أنا و»حَمْزة».. ولَكِنْ لَيْسَ أكْثَرَ مِن ذَلِك.

وكَذَلِكَ أخي «شاهينُ» لا تَبْدو عَلَى وَجْهِهِ نَضْرَةُ النَّعيمِ الَّتي تَسْري في عُروقي وبَشْرَتي، بل ولَمْ تُرْسَمْ على رَقَبَتِهِ النَّجْمَةُ البَيضاء مثلنا.. وعلى الرَّغْمِ مِنْ أنَّ جَفافَ الصَّحْراءِ لا يَزالُ يَظْهَرُ على جِلْدِ «حَمْزَةَ» كَما لَمْ يَصْفَحِ العَطَشُ عَنْهُ، إلَّا أنَّهُ الْوَحيدُ الَّذي قد نالَ مِثْلي نَصيبًا مِن الحَظ وقِسْمَةً مِنَ السَّلام في عُيونِ هذا البُسْتانِ المَعْروشِ.. على عَكْسِ «سُليمان» وأخي اللَّذَيْنِ قد حُرِما هِبَةَ الِارْتَقاءِ وفَضْلَ صَفاءِ النفس.. ولَكِن لا أعْرِفُ لِماذا!

... لَمْ أشْعُرْ بِالْغَضَبِ حينَ رَأيْتُ «فارِسَ» الَّذي كان قَدْ أهانَني ثُمَّ حاوَلَ قَتْلَ «شاهين»، ولا مِنْ أُخْتِهِ الَّتي قد هَرَبَتْ وتَرَكَتْني بِمُفْرَدِي أمْسَحُ دِماءَ أخي وأبْكي على رَحيلِهِ.. ولَمْ تَبْعَثْ رُؤيَتُهُما أيَّ ضَغينَةٍ في صَدْري، وكأنَّ عُقْدًا مِنْ غُصْنِ الزَّيْتونِ قَد الْتَفَّ حَوْلَ قَلْبي.. وعلى الرَّغْمِ مِنْ أنِّي قَدْ تَوَعَّدتُهُما بِالِانْتِقام له، إلَّا أنَّ السَّلامَ المَوْلودَ حَديثًا في نَفْسي قد اِنْتَصَرَ على الغَيْظِ والرَّغْبَةَ في الثَّأْرِ، وجَعَلَني أقْتَدي بِالقِرَدَةِ الثَّلاثَةِ الحَكيمَةِ، فأصْبَحْتُ «مزارو» و»كزارو» و»لوزارو» مُجْتَمِعين؛ لا أرَى شَرًّا ولا أسْمَعُ شَرًّا ولا أتَكَلَّمُ شَرًّا.. خُصوصًا أنَّ أخي الآنَ بِخَيْرٍ ولَيسَ هُناكَ أيُّ داعٍ مِنْ إثارَةِ المَشاكِل.

حَتَّى أنِّي لَمْ أسْتَطِعْ مَنْعَ نَفْسي مِنَ التَّبَسُّمِ حينَ رَأيْتُهُما، وكأنِّي أسْتَضيفُهُما في بَيْتي في مُناسَبَةٍ اجْتِماعِيَّةٍ سَعيدَةٍ أو في لِقاءٍ لِلَمِّ الشَّمْلِ.. وما زادَني فَرَحًا

هو أنَّ «سُـليمانَ» قد وَجَدَ ابْنَتَهُ.. كما أنَّ «بَكْر» بِخَيْرٍ على ما يَبْدو، رَغْمَ أنَّ هَيْئَتَهُ مُشَوَّشَـةً إلى حَدٍّ كَبـيرٍ وكُلَّ قِطْعَةٍ في وَجْهِهِ تَتَحَرَّكُ بِطَريقَةٍ مُزْعِجَةٍ، وكذلك ملابسـهُ رَطِبَةٌ تَفوحُ مِنْها رائِحَةُ العَرَقِ ووَجْهُهُ يَغْلِبُ عَلَيْهِ اللَّوْنُ الأَحْمَرُ، ولَكِنَّهُ على أيِّ حالٍ لايزالَ حَيًّا، ويَكْفي ذلك لِأقولَ أنَّهُ بِخَيْرٍ.

... كانَ راشِـقًا في جِـذْعِ النَّخْلَةِ العالِيَةِ الَّتي يَجْتَمِعونَ عِنْدَها، سَـيْفٌ كَالَّـذي قَـدْ وَصَفَهُ «شـاهينُ» لَنا مِـنْ قَبْلُ وادَّعَى أنَّـهُ بِحَوْزَتِـه.. كَيْفَ لَمْ أرَ تَلْـكَ النَّخْلَـةَ مِنْ قَبْلُ بينما هي شَـديدَةُ العُلُوِّ والوُضـوحِ ولا تَخْفَى على مُبْصِرٍ؟!

سـألتُ أخـي؛ «كيفَ وَصَلَ سَـيْفُكَ إلى هُنا؟».. فقـال لي: «هذا لَيْسَ نَفْسَ السَّيْفِ، ولَكِنَّ الشَّبَهْ كَبيرٌ بَيْنَهُما»

– ولِمُ أنتَ مُتأكِّدٌ مِنْ ذلك؟

– الآخَـرُ مُلَوَّثٌ بِدِماءِ «فارِس»، حَيْثُ لَمْ أسْـتَطِعْ تَنْظيفَـهُ جَيِّدًا.. أمَّا هذا فَيَبْرُقُ كَالجَديدِ.

– ألا زِلْـتَ تَدَّعِـي أنَّكَ قـد قَتَلْتَ «فارِسَ» بينما هـو أمامَكَ الآنَ حَيٌّ يَتَكَلَّمُ ويَتَنَفَّسُ؟!

– لا بُدَّ أنَّ «رنا» الغَبِيَّةَ هي مَنْ أعادَتْهُ لِلْحَياةِ... أنا لا أكذِب!

... اِسْـتَقْبَلَنا «فـارسُ» و«فـيروزُ» بِوَجْهَـيْنِ لا يَخْلُـوانِ مِـنَ الذُّهـولِ والخَشْـيَة.. فقـد كانا يَتَوَقَّعانِ الثَّـأْرَ والثَّوْرَةَ بعدَما صـارَ، خاصَّةً أنَّ وَجْهَ «شاهينَ» كانَ يَفورُ مِنَ الغَيْظَ ويَسْتَشيطُ مِنَ الضَّغينَةِ...

أمَّا «ياسـمين»؛ فَقَدْ قَفَزَتْ فَوْقَ كَتِفِ أبيها وبَكَى كُلٌّ مِنْهُما طَويلًا ثُمَّ

سـارَا بَعيدًا عَنَّا، وأخَذَتْ تَحْكِي إلَيْهِ وتُعاتِبُهُ، فَيُقَبِّـلُ جَبينَها ويَعْتَذِرُ إليها ويُطَمْئِنُها.. وكذلِكَ قد قَفَزَ «شـاهينُ» أيضًا على كَتِفِ «فارِس» وأسْقَطَهُ عـلى الأرض وهـو يَصيـحُ ويسـأله؛ «كيـفَ اجْتَمَعَتْ أشْـلاؤكَ بعـدَ أنْ قَطَّعْتُكَ بيَدَيّ؟!» ولَكِنَّ لِسانَ «فارِس» قَدِ انْعَقَدَ ولَمْ يَرُدّ..

هل سَـكَتَ لأنَّهُ بِالْفِعْلِ عائِدٌ كَسُـلَيمان مِنَ المَـوْتِ كما يفترِضُ أخي؟ أمْ لأنَّهُ مَصْدومٌ بعدَ أن قَتَلَ «شاهينَ» ولَمْ يَتَوَقَّعْ رُؤيَةَ شَبَحه مَرَّةً أُخْرَى؟

... رَكَضَـتُ أنـا و«حَمْـزَة» و«فَيروز» نَحْـوَ أخيها لِنُخَلِّصَهُ مِنْ شِـباكِ أخي الَّذي كان قَدْ فَقَدَ السَّـيْطَرَةَ على نَفْسِهِ.. ولَكِنَّ «بَكْرَ» لَمْ يَبْرَحْ مَكانَهُ، وكَأنَّهُ في عالَمِ مُوازٍ أو يَتَحَرَّكُ في وَسَطٍ فِيزْيائِيّ أخَرٍ.

نَجَحْنـا في دَفْعِ «شـاهينَ» بَعيدًا عَـن «فَارِس»، ولَكِـنَّ الأخيرَ قد قامَ نَحْوَ السَّـيْفِ لِيَنْتَزِعَهُ مِنَ جِـذْعِ النَّخْلَةِ كَيْ يُدافِعَ بِهِ عَنْ نَفْسِـهِ... فَأوْقَفَهُ «شـاهينُ» على الفَوْرِ بِصراخِهِ قائِلًا في هِياجٍ شَديدٍ؛ «لا تَمَسّ ذلك السَّيْفَ أيُّها المَعْتوه! سَـأدَعُكَ وشَـأنَكَ ولَنْ أُؤذِيَكَ أبَدًا، ولَكِنْ أبْعِدْ يَدَيْكَ عَنه في الحالِ!»

- أتَظُـنُّ أنِّي أرْهَبُكَ أيُّها الحَقير؟ أنا لا أحْتاجُ مِنْكَ أنْ تَدَعَني وشـأنِي، بَلْ أنتَ الّذي سَتَتَوَسَّلُ الآنَ مِنِّي الرَّحْمَةَ..

- أرجـوكَ لا تَفْعَـل! فها أنا أعْتَذِرُ إلَيْكَ وأعْـتَرِفُ بِخَطَئي في حَقِّكَ! أتَوَسَّلُ إلَيْكَ ألَّا تَجْذِبَه مِن مَكانِه!

تَجاهَلَ «فارِسُ» اِسْـتِرْحامَ أخي وتَوَسُّـلَهُ الغَيْرَ مَفْهومَيْنِ أو مُتَوَقَّعَيْنِ، ووَضَـعَ راحَـةَ كَفِّهِ على مَقْبَضِ السَّـيْفِ في تَحَدٍّ وشَرٍّ بالِغَيْنِ.. فَهَزَّ السَّـماءَ

دَوِيٌّ مُفْجِعٌ طَغَى على صِراخِ الألَمِ الَّذي قَدْ أصابَ البَعضَ مِنَّا بِمُجَرَّدِ أنْ لَامَسَ «فارِسُ» السَّيْفَ، والَّذي بِدَوْرِهِ قَدْ سَقَطَ على وَجْهِهِ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ بَعْدَ أنْ أصابَهُ الصَّرَعُ..

ولَكِن لَيْسَ هذا هُو الأمْرُ الغَريب.. الغَريبُ هُو أنَّ أخي الَّذي لَمْ يَمَسَّ السَّيْفَ قَدْ نالَ نَصيبًا مِنَ العِقابِ أيضًا، حَيثُ سالَ الدَّمُ مِنْ أُذُنَيْهِ وفَمِهِ وأنْفِهِ، وأخَذَ يَبْكي ويَضْرِبُ رأسَهُ بِشَكْلٍ هيستيرِيٍّ في الجِذْعِ، ولَكِنَّ نَزيفَهُ كانَ يَزْدادُ سوءًا.. وكَذَلِكَ قَدْ تَجَرَّعَ «بَكْر» جَزاءَ ما لَمْ يَفْعَل، وزادَ وَجْهُهُ حُمْرَةً وكأنَّ الحُمْرَ قد حَلَّ مَحَلَّ الدَّم مِنهُ، فَأخَذَ يَصيحُ في ضَعْفٍ ويسألُ في وَجَعٍ؛ « أيْنَ الينبوعُ؟ خُذوني إلَيْهِ لِأنْطَفِئ! اهْدوني إلى طَريقِهِ فَوْرًا وأغِيثوني مِن هذا العَذاب!»

سَحَبْنا جَميعًا «بَكْرَ» و«فارِسَ» و«شاهينَ»، ثُمَّ قَذَفْنا بِهِم في الينْبوع... فَهَدَأَ الصِّراخُ وسَكَنَتِ السَّماءُ وتَلاشَى ضَجيجُها، ثُمَّ اسْتَفاقَ «فارِسُ» وانْطَفَأَ «بَكْرُ»، ورُسِمَتِ النُّجومُ البَيْضاءُ على عُنُقَيْهِما.. إلَّا أخي، فَهُو الوَحيدُ الَّذي لَمْ يُشْفَ بَعْد...

مِنَ الواضِحِ أنَّهُ كانَ يَكذِبُ حينَ أنْكَرَ أنَّ هذا هو نَفْس السَّيْفِ الَّذي قد أخفاهُ عَنَّا.. فَهل تُعاقِبُهُ النَّخْلَةُ لِأنَّهُ قَدْ سَرَقَ السَّيفَ مِنْها مِن قبل؟ وهل كانَ قَد تَلَقَّى تَحْذيرًا مِنْ سَعَفِها بِألَّا تُعادَ الكَرَّةُ مُجَدَّدًا لِذلك تَوَسَّلَ إلى «فارس» لِكَيْلا يمسّها؟

وكيف على أيِّ حالٍ قد عادَ السَّيْفُ إلى النَّخْلَةِ في نَفْسِ الوَقْتِ الَّذي جَلَبَهُ فيهِ إلى أرضِ الثَّلْجِ، قَبْلَ أن يَضيعَ مِنْهُ كما أخْبَرَنا؟. أمْ أنَّهُ قَدْ كَذَبَ

عَلَيْنا بينما هو في الحقيقةِ لَمْ يأخُذْهُ مِنَ الأساسِ كما ادَّعَى؟ أو لَعَلَّ هُناكَ علاقَةٌ بَيْنَهُ وبينَ ذلك السَّيْف! ولَكِن ماهي ومَتَى نَشَأَت؟ ولِمَ قد خَبَّأَهُ عَنَّا مِنْ قَبْل؟ ولِمَ قد أخْبَرَنا بِأمْرِهِ مِنَ الأساس؟ فهي على الأكيدِ لَمْ تَكُنْ زَلَّةَ لِسانٍ، فَلَقَدْ قامَ بِوَصْفِهِ مُتَطَوِّعًا دونَ أنْ يَسْأَلَهُ أحَدٌ... أظُنُّ أنَّ السِرَّ لا يَكْمُنْ في وُجودِ السَّيْفِ مِنْ عَدَمِه، بل أنَّ السِّرَّ في هَوِيَّةِ الشَّخْصِ القادِرِ على لَمْسِهِ.. ولَكِن، لِمَ قد تَخْتَصُّهُ المتاهَةُ هو دونًا عَنْ غَيْرِهِ بِذلك الأمر؟!

تُرَى ماذا فَعَلَ أخي وما الَّذي قد أوقَعَ نَفسَهُ فيه؟ أَمِنَ المُمْكِنِ أنْ يَكونَ قَدْ عاهَدَ قُوَى الشَّرِّ في هذا المَكانِ على الطَّاعَةِ، ثُمَّ أخَذوا مِنْهُ مِيثاقًا غَليظًا بِخِدْمَةٍ غَيْرِ مَشْروطَةٍ؟ ومَتَى فَعَلَ هذا ولِماذا؟. فَما الَّذي يَحْدُثُ مَعه وكيف يُمْكِنُنِي أنْ أُساعِدَه؟

وماذا أفْعَلُ لِأوقِفَ نَزيفَهُ؟ أخْشَى أنْ يَكونَ مُخَّهُ قَدِ انْفَجَرَ وقَتْلَهُ أصْبَحَ نافِذًا ولا دَواءَ لَه، وأخشى كَذَلِكَ أنْ يَنْفَجِرَ مُخِّي مَعَهُ مِنْ فَرْطِ التَّفْكيرِ في هذا الجنونِ!

الطَّبيبَة

«هُناكِ مَنْ يَحْتاجُ إلى المُساعَدَة»... هَمَسَتْ «رنا» وهي تَدْعَكُ رأسَها بِيَدٍ وتَفْرُكُ خَلْفَ إحْدَى أُذُنَيْها بِاليَدِ الأُخْرَى.

رَيان: مَنْ؟

- لا أعْلَمُ.. ولَكِنْ يُمْكِنُنِي تَحْديد مَكانه بِدَقَّةٍ بالِغَةِ الوُضوحِ، فَلْنُسْرِعِ الآنَ إلَيْهِ أو إلَيْها!

... سِرْتُ مَعَها طَريقًا طَويلًا لا تَصِلُهُ عُيونُ وأنوفُ قاطِنِي الغابَة، إلى أن وَصَلْنا مَعْبَرًا تَكْسوهُ ظِلالُ أشْجارٍ مائِلَةٍ لِلزُّرْقَةِ، يَقودُ إلى الأسْفَلِ حَيْثُ أرضِ اليَنْبوع.. وحينَ وَصَلْنا إلى مَشارِف تِلْكَ الأرض أصْبَحَ جَميعُهُم على مَرْأى أعْيُنِنا، فاسْتَطَعْنا أثناءَ سَيْرِنا أنْ نَرَى بِوُضوحِ الْتِفافَهُم حَوْلَ «شاهين» مِنْ بَعيدٍ، بينما هو يَثِبُ عِنْدَ نَخْلَةٍ رَهيبَةٍ ثُمَّ يَرْكُضُ نَحْوَ اليَنبوعِ، ثُمَّ يَعودُ إلى النَّخْلَةِ مُجَدَّدًا لِيَضْرِبَ رأسَهُ فيها ومِنها إلى اليَنبوعِ مَرَّةً أُخْرَى، مرّاتٍ عديدة ومَرَّات...

أسْرَعَتْ «رَنا» نَحْوَهُ كالطَّيْرِ المَفْجوعِ على بَيْضِه.. وحينَ وَصَلَتْ إلَيْهِ أخَذَتْ بِرَأْسِهِ تَجُرُّهُ إلى زَهْرَةٍ ضَخْمَةٍ خَضراء قَريبَةٍ مِنَ اليَنبوع، ثُمّ دَفَسَتْ وَجْهَهُ عِنْدَ مَيْسَمِها لِيَمْتَصَّ رَحيقَها، ثُمَّ مَسَحَتْ بِكَفَّيْها على رَأسِهِ ووَجْهِهِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ حَتَّى تَوَقَّفَ نَزيفُهُ.. فارْتَمى في الحالِ على ظَهْرِهِ تَحْتَ قَدَمَيْها، وهو يَنْظُرُ إليها بِكُلِّ امْتِنانٍ وشُكْرٍ.

نَظَـرَتْ إلَيْها أخْتُهُ وهي تُبَحْلِقُ بعَيْنَيِن غَيُورَتَيْنِ وشَـكَّاكَتَيْنِ، سـائِلَةً: «مِـنْ أينِ لَكِ هذه السَّـطْوَةُ ومَتَى تَعَلَّمْتِ هذا السِّـحْرَ؟»... فَتَوَلَّتْ عَنْها الطَّبيبَةُ الجَديدَةُ بَعْدَ أنْ قالَتْ لَها: «ما مَكَثْتِ فيهِ بِما يَكْفي فيه. أنْصَحُكِ أنْ تَعودِي إلَيْهِ الآنَ!»...

ثُـمَّ أخَذَتْ «بَكْرَ» مِنْ يَدَيْهِ وسـارَتْ بِهِ إلى شَـجَرَةٍ صَغـيرَةٍ، وقَطَفَتْ مِنْهـا بِضْعَ ثَمَرَاتٍ خَضْراء وأمَرَتْهُ بِتَناوُلِها، فَسَـأَلَها: «مـا هذا؟».. أجابَتْهُ وهي تُقَرِّبُها مِن فَمِهِ قائِلَةً: «هذه ثِمارٌ مُعَدَّلَةٌ مِنَ الكيوكاميلون، سَتُساعِدُكَ على خَفْضِ دَرَجَةِ حَرارَتِكَ الآنَ أو مَتى اسْتَدْعَى الأمْر».. فَتَناوَلَها فَورًا ذو اللَّهَبِ وهو مُغْمِض العَيْنَيْن، بعد أن أبْدَى الطَّاعَةَ ولَمْ يَتَمَنَّع عَنِ السَّمْع.

وبعـد ذلـك العَـرْضِ المُشَـوِّقِ، التَفَّتْ بِهُـدوءٍ ثُـمَّ تَوَجَّهَـت إلى جَميعِ النَّاظِريـنَ إلَيْهـا بِإجْلالٍ بِسُـؤالِها: «أينَ خَلْـدون؟»... فَأخْبَرَتْهـا أنَّهُ كانَ يَحْفُـرُ مَعي حُفْـرَةً عَميقَةً كي نَحْتَمـيَ فيها مِنْ وُحوشِ الغابَةِ سَـوِيًّا، قَبْلَ أنْ يَذْهَـبَ ويَتْرُكَني مِنْ خِـلالِ نَفَقٍ فيها... فَقالَتْ بِنَبْرَةٍ حَزينَةٍ وهي تَنظُرُ بَعيدًا وتَضَعُ يَدَها على بَطْنِها: «لا أشْعُرُ أنَّهُ بِخَيْرٍ».

«أنـا السَّـبَبُ في ضَياعِـهِ، ليْتَني مـا جِئْتُ بِـهِ إلى هُنا!»... قالَ سُـليمان بِصَوتٍ خافِتٍ وكأنَّهُ لا يُريدُ أن يُسمِعَ إلَّا نفسَه.

بكر: ومَنْ جاءِ بِك؟

سُليمان: حَمْزَة.

بَكر: ومَنْ جاءَ بِكَ يا حَمْزَة؟

حَمْـزَة: لا أحَد.. فَلقَدْ سَـمِعْتُ عَـنِ المُخَيَّمِ وقَرَّرْتُ المَجـيءَ ثُمَّ دَعَوْتُ

«سُلَيْمانَ»، وطَلَبْتُ مِنْهُ إحْضارَ مَعارَفه لِنَتَمَكَّنَ مِن تَكْوينِ مَجْموعَة، حَيثُ أنِّي مِنَ الرِّيفِ وليسَ لي أصْدِقاء كُثُر في المَدينَةِ.

بَكر: ومِمَّنْ سَمِعْتَ عَنِ المُخَيَّم؟

حَمْزة: مِنِ امْرَأةٍ مكسيكِيَّةٍ تُعَلِّمُ الرَّسْمَ في مَرْكَزٍ في قَرْيَتِنا.. «سُليمانُ» يعرفِها كذلك.

سُليمان: تَبًّا! هل «باربرا» هي مَنْ أقْنَعَكَ بِالمَجيء؟ كيف؟

حَمْزَة: أرَتْني صورَةً لِفَتاةٍ جَميلَةٍ، وأخْبَرَتْني أنَّ هذا المُخَيَّمَ سَيكونُ فُرْصَةً جَيِّدَةً لِلتَّعَرُّفِ عَلَيْها، حَيْثُ تَحْضُرُ إلى هُنا كُلَّ عام مَعَ أصدِقائِها.. وهي كَذَلِكَ الَّتي اقْتَرَحَتْ عَلَيَّ عَرْضَ الأمْر عَلَيْكَ أنتَ و«ياسمين»، لِلتَّرْفيهِ عَنْها قَليلًا بَعْدَ وَفاةِ أمِّها».

بَكر: وتِلْكَ الفَتاةُ الَّتي جِئتَ من أجلها، هل أتَتْ إلى المُخَيَّم؟

«بِالتَّأكيدِ لا»... قال «حمزة» وهو يَضْحَكُ بِحَسْرَةٍ مُمْتَزِجَةٍ بِالخَجَلِ.

سُليمان: ولِمَ لَمْ تَحْضُرْ «باربرا» مَعَنا؟

حَمزة: مِنَ الواضِحِ أنَّها قَدِ اعْتَزَمَتْ على الإلقاءِ بِنا إلى التَّهْلُكَةِ عَنْ قَصْدٍ.

سُليمان: هذا يَعْني أنَّ «شاهينَ» كانَ يَكْذِبُ حينَ أنْكَرَ رِوايَةَ «فيروز»!

بكر: وما الذي قالته «فيروز»؟

سليمان: أنَّهُ هو من أقنعها وأخاها بالمجيء.. وكذلك قالت «شيري» أنَّهُ قد زار «باربرا» قبل شُهورٍ في جزيرَةٍ في الكاريبي، بل وكانا حَبيبَيْنِ.

«قُم أيُّها الوَضيع وأخبِرْنا عَنْ حَقيقَتِكَ وحَقيقَتِها!»... قال «فارس»

وهو يركل ساقَ «شاهين» المُسْتَلقي على الأرضِ بِقَدَمِهِ، والَّذي قد تأوَّهَ حَتَّى أوجَعَ قلبَ أُخْتِهُ الَّتي صَرَخَتْ وهي تدفع الآخَرَ بعيدًا عن أخيها وتبكي سائِلَةً: «ولِمَ يُبَرَّأُ «حَمْزَةُ» ويُتَّهَمُ أخي؟!»

حمزة: وما هِيَ تُهْمَتي؟!

شيري: أَلَيْسَ مِنَ الوارِدِ أنْ تَكونَ أنتَ الكذَّاب؟

- ولِمَ سَأكذِبُ؟

- ولِمَ سَيَكْذِبُ أخي كذلك؟ فَلْنَقُمْ إذًا بِمُساءَلَةِ «فارس» و«فيروز» أيضًا!. ومِنَ المُحْتَمَلِ كذلك أنْ يَكونَ «خَلدونُ» هو المُتَّهَم، أفلا يعني اختِفاؤه أنَّهُ قَدْ خَرَجَ مِنَ المَتاهَةِ بَعْدَ أنْ حَبَسَنا نَحْنُ فيها؟

سُليمان: أنتِ تُشَكِّكينَ في الجَميعِ لِتَصْرِفينا عَنْكِ، فَرُبَّما تَكونِي أنتِ أصْلُ البَلاءِ الَّذي نَحْنُ فيه.

شيري: اِخرَس أيُّها الأحْمَق المُضَلِّل!

رنا: تَوَقَّفي الآنَ عَنْ ضَجيجِكَ هذا واسْتَمِعي لي!

- أبالفِعلِ صِرتِ تَظُنِّينَ نَفسَكِ صاحِبَة الأمر والنَّهي؟!

- لَقَدِ اخْتَفَتِ النَّجْمَةُ على رَقَبَتِكِ.. أتَعْرِفينَ ما الَّذي يَعنيهِ هذا؟

- لا أُريدُ أنْ أعْرِفَ، ولَمْ أعُدْ مُهْتَمَّةً بِيَنْبوعِكِ الغَبِيِّ وسِحْرِهِ الأغْبَى مِنه.

- هذا يَعْنِي أنَّكِ لَمْ تَعودِي مِنَ المَقْبولين.

- مَقْبولين؟ حَقًّا؟! لَقَدْ صِرْتِ مُشَعْوِذَةً مَجْنونَةً تَتَفَوَّهُ بِالخُرافاتِ، ولَقَدْ سَخَّرَتْكِ المَتاهَةُ وَجَعَلَتْكِ مِنْ عَبيدِها... فَهَنيئًا لَكِ ذهابَ عَقْلِكِ!

«فلْتَسْتَمَعِي فَتُطَأْطِئِي فَتُطيعي! ولْتُغَطُّوا جَميعُكُمُ الرُّؤوسَ بِماءِ اليَنْبوعِ، ولا تَخْرُجوا حَتَّى آمُرَكُم! وإنْ يَعْصِ أحَدُكُمُ الأمْرَ نَهْلَكْ جَميعًا»... قالَت «رَنـا» بِصَوْتٍ أشْـبَه مـا يَكونُ بِالرَّعْـدِ ووَجْـهٍ مَلَكِيٍّ لا مَجـالَ لِعِصْيانِهِ.. فَدَخَـلَ وَعيدُهـا على قُلوبِنا دُخُـولَ المَاءِ على النَّـارِ، فأطْفـأَ أيَّ مُقاوَمَةٍ أو رَغْبَـةٍ في جِدالٍ.. حَتى «شـيري»؛ قَدْ انْطَمَسَ عِنادُهـا وتَمَرُّدُها، وانْغَمَسَ كِبْرِياؤها تَحْتَ سَطْحِ الماءِ مَعَنا كَما أمَرَتِ الحاكِمَةُ الجَديدَةُ.. لِنَخْرُجَ جَميعًا بَعْدَ إذْنٍ مِنْها، بِالنُّجومِ البَيْضاء والعُقولِ المُغَيَّبَةِ..

خَلدون في حَضرَةِ الدُّستور

كان مُعَلَّقًا أمامي على بُعْدِ أقَلِّ مِنْ نِصْفِ مِتْرٍ تقريبًا، سِجِلٌّ أصْفَرُ كَتَبَتْ فيهِ يَدٌ بَشَرِيَّةٌ بِعِدَّةِ لُغاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، وآخَر مَرْسومٌ عَلَيْهِ أشْكالٌ ورُموزٌ وخُطوطٌ مُبْهَمَةٌ، وإلى جِوارِهِما قَلَمٌ صَغيرٌ خَشَبِيٌّ... لا بُدَّ أنَّ مَلِكَهُم البَشَرِيَّ الَّذي الْتَقَيْتُهُ هُو مَنْ كَتَبَ السِّجِلَّ الَّذي على اليَمِينِ... لا أفْهَمُ كيفَ أصْبَحَ حاكِمَهُم! ولِمَ اخْتارَ أنْ يَعيشَ مع هؤلاءِ القَوْمِ؟ حيثُ لا أحَدَ يُشْبِهُهُ أو يستَطيعُ التَحَدُّثَ بِلغَتِهِ.

دَقَّقْتُ النَّظَرَ لِأقْرَأَ شَيْئًا مِنَ المَكْتوبِ فَلَمْ أسْتَطِع، إذ أنَّ الخَطَّ كانَ صَغيرًا جِدًّا... ولَكِنِّي حينَ حَرَّكْتُ رأسي، وَجَدْتُ أنَّ حَجْمَ الحُروفِ يَتَغَيَّرُ لِلأكْبَرِ أوِ الأصْغَرِ وِفقًا لِلاتِّجاهِ الَّذي أُحَرِّكُ فيهِ رَأسي، وكأنِّي قد أصَبْتُ البُؤرَةَ الصَّحيحَةَ لِعَدَسَةٍ غيرِ مَرْئِيَّةٍ بَيْنَ الكِتابِ وعَيْنَيّ، حَتَّى اسْتَطَعْتُ الرُّؤيَةَ بِشَكلٍ واضِحٍ بِما يَكفي لِتَفسيرِ الحُروفَ والكَلِماتِ..

كانَتِ الجُمَلُ قَصيرَةً ومُرَقَّمَةً في سُطورٍ مُنْفَصِلَةً، فَظَنَنْتُ في بِدايَةِ الأمْرِ أنَّهُ تَسْجيلٌ مُخْتَصَرٌ لِأحْداثٍ تاريخِيّةٍ، أو سِجِلُّ أسْماءٍ بِتَرْتيبِ الأعْمار... ولَكِنِّي حينَ لَحَظْتُ العُنْوانَ الجانِبِيَّ دَقيقَ الحَجْمِ في أعْلَى الصَّفْحَةِ، عَرِفْتُ أنَّ ما أمامَي هو دُسْتور المَمْلَكَةِ مُفَصَّلًا..

كانَ القانونُ الأوَّلُ يُؤَكِّدُ على ضَرورَةِ الطَّهارَة، والثَّاني يُلْزِمُ بِالْوَفاءِ بِالْوَعْدِ، والثَّالِثُ يُنْذِرُ بِالحِسابِ والجَزاءِ، والرَّابِعُ يَنُصُّ على الطَّاعَةِ

والـوَلاء، والخامِـسُ يُنَبِّئُ بِشَريعَةِ الحُكْم، والسَّـادِسُ يُقَدِّسُ الـدَّمَ ويُحَرِّمُ الشَّيْخوخَةَ، والسَّـابِعُ يَتَوَعَّدُ بِهَلاكِ المُتَطَفِّلينَ... كانَتْ كُلُّها جُمَلٌ مُخْتَصَرَةٌ لا تُسْـمِنُ ولا تُغْنِي مِنْ جوعٍ، فَألَحَّ عَـلَيَّ الفُضولُ في دَاخِلي كَطِفْلٍ مُزْعِجٍ لا يُمْكِنُ تَهْذيبه، وشَـعَرْتُ بِرَغْبَةٍ شَـديدَةٍ في فَهْمٍ أوْضَـحٍ وتَعَمُّقٍ أكْبَرٍ في التَّفاصيلِ، فَلَعَلِّي أعْرِفُ ما قد يَكونُ سَبَبًا في نَجاتي.

وَلَكِنْ لا أظُنُّ أنَّ هُناكَ صَفْحَةٌ أُخْرَى لِأَقْلِبَها، حَيْثُ أنِّي لا أَرَى سُمْكًا لِهذا الكِتابِ... فَيجب أن ألْمِسَـهُ بِأصابِعي لِأعْرِفَ ماهِيَّتَهُ أو كَيْفِيَّةَ التَّنَقُّلِ بَيْنَ أجْزائِهِ، ولَكِنَّ يَديَّ المُكَبَّلَتَيْنِ في الحائِطِ لن تسـتطيعا بِالطَّبْعِ أداءَ تلك المُهِمَّةِ..

فَما كانَ مِنِّي إلَّا أنْ قُمْتُ بِالنَّفْخِ فلم يُفْلِح، فاسْتَحْضَرْتُ قُوَّةِ العَقْلِ لِهَزِّ الكِتابِ وحَثِّهِ على كَشْفِ المَزيدِ عَنْ نَفْسِهِ، ولِكَنَّ ذَلِك أيضًا كما هو مُتَوَقَّع لَمْ يَنْفَـعْ.. فَتَأرْجَحْـتُ بِجِذْعـي يَمينًا ويَسـارًا لِأفْحَصَهُ بِنَظـري مِنْ جَميعِ الجَوانِـبِ، حَتَّى أدْرَكْتُ أنَّ الصفحَةَ لا تُقْلَـبُ.. بَلْ إنَّها تُرْفَعُ... فَمَدَدْتُ جذعي بأعجوبَةٍ في اتِّجاهِها، لِأُحَرِّكَها لِلْأعْلَى بِجَبيني أو خَدِّي أو ذَقْني.. إلى أنْ نَجَحَ أخيرًا أنْفي في عَمَلِ اللَّازِمِ، والِانْتِقالِ بي إلى السُّطورِ التَّالِيَةِ...

***

القَلب

ذَهَبَ عَنِّي ثُقْلُ جَسَدي ورُوحِي، فأصْبَحْتُ مُنْسَجِمًا مَعَ البيئَةِ الَّتي كانَتْ تُعانِدُني قَبْلَ أنْ أتَطَهَّرَ.. ونَسيتُ أمْرَ النَّارِ الَّتي كانَتْ تَتَلَظَّى في شَرايِيني، ورَوائِحَ أبْخِرَةِ البُرْكانِ الَّتي كانَتْ مُسْتَقِرَّةً في أنْفي وَرِئَتَيّ.. وصارَتْ كَلِمَةُ الشَّرِّ في عَقْلي مُبْهَمَةَ المَعْنى، ولا عُدْتُ أدْري كيفَ يَكونُ الشُّعورُ بِالكِبْرِ أوِ الحِقْدِ.

اِتَّبَعْنا «رَنا» الَّتي كانت تَقْتادُها قُوَّةٌ مَجْهولَةُ المَصْدَرِ في خَطٍّ مُسْتَقيمٍ كَالماشِيَةِ، ولَكِن كُنَّا أكْثَرَ نِظامًا وطاعَةً، وأقَلَّ إرادَةً وفَهْمًا...

مَشَيْنا شَمالَ النَّخْلَةِ في سُهولٍ ومُنْخَفَضاتٍ وأوْدِيَةٍ عَديدَةٍ لَمْ تَظْهَرْ إلَّا أثْناءَ سَيْرِنا، فَكُلَّما اقْتَرَبْنا مِنْ حافَّةِ الطَّريقِ الَّذي لا يُؤَدِّي إلَّا لِلسُّقوطِ في الفَراغِ، خُلِقَتْ لَنا طُرُقٌ جَديدَةٌ مِنَ العَدَمِ.. فَكُنَّا نَخْطو على الهَواءِ ونَحْنُ نَعْلَمُ أنَّ أقْدامَنا بِالتَّأكيدِ سَتَجِدُ ما تَصْطَدِمُ بِهِ... لا نَعْرِفُ وجْهَتَنا ولا المَكانَ المَنْشودَ، ولَكِنَّنا مع ذلك نَسْعَى ونَسيرُ مُؤمِنينَ بِحَقِّ أداءِ واجِبٍ لا نَعْلَمُه، ولا نَعْرِفُ سَبَبَ فَرْضِهِ عَلَيْنا..

كانَتْ تَهْدينا الفَراشاتُ وتُكَلِّمُنا الطُّيورُ وتُنَبِّهُنا الرَّوائِحُ، حَتّى وَصَلْنا إلى بابِ قَلْعَةٍ مَهيبٍ مِنَ الجَواهِرِ واللَّآلِئِ، عِنْدَ أرْضٍ جافَّةٍ صَلْبَةٍ كَثيرَةِ الشُّقوقِ، شَمْسُها كبيرَةٌ وقَريبَةٌ، تَمْكُثُ وحيدةً في السَّماءِ البَيْضاء الخالية من السُّحُبِ.. وكانَ الهَواءُ لَهُ رائِحَةُ المَعادِنِ المُنْصَهِرَةِ وفيهِ حِدَّةُ فَصْلِ الجَفافِ.. والجِبالُ تَقِفُ مُطَبَّقَةً بِحَوافٍّ مُسَنَّنَةٍ...

اِسْـتَوْقَفَتْنا عِنْدَ البَوَّابَةِ أُنثَى طَويلَةٌ شَـديدَةُ السَّوادِ.. لا تَبْدو مِنَ البَشَرِ ولا فيها كذلك مِنْ هَيْئَةِ الجِنِّ الَّتي نَفْتَرِضُها دَوْمًا في مُخَيِّلاتِنا، ولا حَتَّى مِنْ صوَرِ مَخْلوقاتِ الفَضاءِ المُخْتَزَنَةِ عادَةً في عُقولِنا الباطِنَةِ..

كانَت رائِحَتُها نَفَّاذَةً تُشْبِهُ رائِحَةَ الدَّبيحَةِ فَوْرَ قَتْلِها، ولَكِنْ أكْثَرَ تَنْفيرًا وقُـوَّةً بِكثـيرٍ.. بَشَرَتُهـا كَجِلْدِ الأحْذِيَـةِ الطَّبيعِـيِّ وأطْرافُها بالِغَـةَ الطُّولِ والمُرونَـةِ.. لَها عَيْنانِ ضَخْمَتـانِ لا بَياضَ فيهِما، وذَقْنٌ مُمْتَدَّةٌ لِلأمام، وفَتْحَةُ أنْـفٍ بالِغَةُ الصِّغَرِ كَشَـقٍّ طولِيٍّ في وَجْهِها، وفَمٌ كَبـيرٌ أخْضَرُ اللَّوْنِ ورَقَبَةٌ كَرَقَبَةِ الضّبْعِ.. لا شَعْرَ لَها ولا أُذُنَيْنِ ولا جَبين.. تَحْمِلُ حَجَرًا ضَخْمًا أبيض اللـون، مُعَلَّقٌ تَحْتَ إبطِها الأيْسَرِ بَيْنَ باطِنِ ذِراعِها وصَدْرِها.. رِداؤُها مِنْ سَعَفِ النَّخْلِ وفَوْقَ رَأسِها طَبَقٌ مِنَ الطِّينِ والوَرْدِ...

دارَتْ بِعَيْنَيْهـا كالبومَـةِ بَيْنَ وُجوهِنـا وكأنَّها تَحْفَظُها أو تَقـومُ بِعَدِّها، ثُمَّ تَقَدَّمَـتْ نَحْوَنا مُتَجاهِلَةً قائِدَتنا ومُتَوَجِّهَـةً إلى مُتَّهَمِنا... غُمِرَ وَجْهُها بالغَضَبِ بِمُجَرَّدِ أنِ اقْتَرَبَتْ مِنْهُ، ثُمَّ أصْدَرَت زَئيرًا رَفَعَتْ بِهِ السِّـتارَ عن أنْيابِهـا - والَّتي تَبْدو أنْيابُ الفُهودِ بِالنِّسْـبَةِ إلَيْها كَأنْيـابِ القِطَطِ - مُعْلِنَةً عَنْ ثَوْرَةٍ عارِمَةٍ ومُنْذِرَةٍ بِعِقابٍ شَديدٍ..

تَسَـمَّرَ «شـاهينُ» في مَكانِهِ وتَبَخَّرَ الدَّمُ مِـنْ وَجْهِهِ المُلْتَصِـقِ بِوَجْهِها، حَتَّـى أشْـفَقْنا عَلَيْـهِ مِنْ هَـوْلِ ما يَصْـبِرُ عَلَيْهِ.. ولَقَد أوْشَـكَ عـلى البُكاءِ والتَّداعِي جاثِيًا أمامَ سـاقَيْها، إلَّا أنَّهُ على غَيْرِ المُتَوَقَّعِ قَدْ اِسْـتَجْمَعَ نَفْسَـهُ وتَماسَكَ سَريعًا، بَيْنَما لَمْ نَتَماسَكْ نَحْنُ بِما فِينا «رنا».. فَقَفَزْنا جَميعًا كالأبْقارِ الَّتي اقْتَحَمَ النِّمْرُ أرْضَها، وانْفَرَطْنا مِنْ حَوْلِها كَحَبَّاتِ العِقْـدِ المُنْقَطِعِ أو

كالماءِ المُتَدَفِّقِ مِن كوبٍ كُسِرَ فَجْأَةً...

ظَنَنّا أَنَّنا نَهْرَبُ ونَنْجو بِأَنْفُسِنا مِن ذَلِكَ الوَجْهِ المُتَوَحِّشِ، إِلَّا أَنَّنا قَد وَجَدْنا أَنْفُسَنا نَعودُ مُجَدَّدًا إِلى أَماكِنِنا بِدِقَّةٍ مُتَناهِيَة، بينما تَنْظُرُ إِلَيْنا تِلْكَ المَخْلوقَةُ بِكُلِّ صَرامَةٍ وشَرٍّ... فَفَهِمْنا أَنَّها تُحَرِّكُنا كالعَرائِسِ بِعَدَساتِها الضَّخْمَةِ وَنَظَراتِها الَّتي تُصيبُنا بِرِماحٍ خَفِيَّةٍ، مَرْبوطَةٍ بِخُيوطٍ مُنْتَهاها أَماكِنُنا الَّتي كُنَّا قد تَرَكْناها...

وبَعْدَما أَعادَتْ حارِسَةُ البابِ النِّظامَ ورَوَّضَتِ القَطيعَ، قامَتْ بِتَسْليمِ «شاهين» ما يُشْبِهُ رِسالَةً مِنْ جِلْدِ حَيَوانٍ غَيْرِ مَعْروفٍ.. ثُمَّ أَشارَتْ إِلَيْهِ بِالدُّخولِ مِنَ البابِ الأَوْسَطِ، وإِلَيْنا بِالدُّخولِ مِنَ البابِ الأَيْسَرِ..

كانَ البابُ يَفْصِلُ بَيْنَ عالَمَيْنِ شَديدَيِّ التَّبايُنِ والتَّناقُضِ.. حيثُ كانَتْ سَماءُ الجانِبِ الآخَرِ مِنَ البابِ كَثيفَةَ السُّحُبِ بَنَفْسَجِيَّةَ اللَّوْنِ، الهَواءُ فيه لَهُ رائِحَةٌ تُشْبِهُ التُّوتَ، وطِّينُهُ وَرْدِيٌّ ودَبِقٌ...

قَطَعْنا مَسافَةً طَويلَةً وَراءَ أَحَدِ أَعْوانِ الحارِسَةِ المُفْزِعَةِ إِلى أَن بَدَأَتْ ملامِحُ السَّماءِ والأَرضِ في التَّحَوُّرِ تَدْريجِيًّا، ووَجَدْنا أَنْفُسَنا نَقِفُ في وَسَطِ مَعْبَدٍ شاسِعِ المِساحَةِ لا سَقْفَ لَه.. يَخْلو مِنَ الأَرواحِ والحُرَّاسِ والعُبَّادِ، بينما تُحيطُهُ الأَصْنامُ والألواحُ والأَعْمِدَةُ العِمْلاقَةُ، ويُسَيْطِرُ عَلَيْهِ الصَّمْتُ والخَواءُ..

مَرْسومٌ على بَلاطِهِ الشَّفَّافِ نَجْمَةٌ كَبيرَةٌ بَيْضاء كالَّتي في رِقابِنا، في مَرْكَزِها إِناءٌ شَفَّافٌ مَطَّاطِيٌّ على شَكْلِ قَلْبٍ يَنْبُضُ بِبُطْءٍ وكأَنَّ فيهِ عُطْلًا، وبِداخِلِهِ قَليلٌ مِنَ دَمٍ يَغْلي إِلى حَدِّ الفَوَرانِ... كانَت تَخْرُجُ مِنَ

الإناءِ عُـروقٌ وأوْرِدَةٌ وشَرايينُ مُخْتَلِفَةُ الأحجامِ لا يُمْكِنُ إحْصاءُ عددها، تَجْـري تَحْـتَ الأرضِ في اتِّجاهِ أضْلُـعِ النَّجْمَةِ ثُمَّ تَتَعَـدَّى حُدودَها، لِتُغَذّيَ طينَةَ المَمْلَكَةِ وتُرَمِّمَ أَساسـاتِ أبْنِيَتِها، وتُقَـوِّمَ تِلالَها وهِضابَها، بَلْ وتَعودَ بِالأعْمارِ بِأفْرادِ شَعْبِها .

فَقَـدْ كانَ كُلُّ عِرْقٍ ووَريدٍ وشُرْيانٍ مَخْتومًا عَلَيْهِ بِرَمْزٍ يُشـيرُ إلى وُجْهَتِه ووَظيفَتِهِ... وكانَ مِنَ الجَلِيِّ أنَّ الدَّمَ في الإناءِ القَلْبِيِّ قَدْ أَوْشَكَ على النَّفادِ، وأنَّ المَمْلَكَة قد صارَت على شَـفا مُصيبَةِ العَطَشِ والذُّبولِ والشَّـيْخوخَةِ، وفي وَجْهِ عاصِفَةِ التَّجْويعِ والنَّقْصِ والحِرْمانِ.

خَلدون أحَدُ القرابين

كانَتِ العِباراتُ في الجُزْءِ الثَّانِي مِن الدُّسْـتورِ أكْثَرَ طولًا وتَفْصيلًا، لَها طابِعٌ قَصَصِيٌّ تُراثِيٌّ يَحْكي عن عيدٍ يُسَـمَّى بِعيدِ الصَّبا، ويُبَيِّنُ كَيْفِيَّةَ إقامَةِ شَعائِرِهُ..

وكانَ النَّـصُّ كالتَّالي؛...(تُـرَدُّ القَلْعَـةُ إلى أرْذَلِ العُمُرِ بَعْـدَ أنْ يَذُوبَ خادِمُهـا الأعْلى.. ثُمَّ تَسْتَسْـقِي المَمْلَكَةُ لِمَسْـحِ شَـيْبِها، فَيَأتي خـادِمٌ جَديدٌ مِـنْ أرْضِ مَعْـشَرِ الإنْـسِ مَعَ عَـشْرَةٍ مِـنْ حامِلي الأكْبـادِ، أحَدُهُمـا طِفْلٌ وأحَدُهُمـا حَبيبٌ، يُطَهَّرونَ في الشُّرْيانِ ويُوسَـمونَ قَبْلَ أنْ تَغْتَسِـلَ القَلْعَةُ بِالأحْمَرِ وتَشْرَبَ السَّـائِلَ الدَّافِئَ، فَتَهْتَزُّ الأضْرَحَةُ ويَعودُ الشَّبابُ لِلْخَلايا والجُحور، ويَتَغَذَّى القَلْبُ ويَمْتَلِئُ ثُمَّ يَغْلي السَّائِلُ فيهِ فيَفورُ.. ثُمَّ يَقْطِفُ الـرُّوحَ ويَضَعُهـا في التَّاجِ ويَسُـلُّ السَّـيْفَ مِنَ العَصَـبِ، فَيَحْكُـمُ القَلْعَةَ بِالْعَقْلِ المَسْلولِ.. ثُمَّ لا تَذْهَبُ قُوَّتُهُ أبدًا ولا يَأخُذُ الزَّمَنُ مِنْ شَبابِـهُ حَتَّى

يَموتَ... ومَنْ يُخْطِئْ يُعَذَّبْ... ومَنْ يُخْلِفْ يُخْلَفْ).

أفأنا أَحَدُ هذه القرابين المُقَدَّمَةِ لِانْتِشالِ القلعَةِ مِن شَيخوخَتِها؟.

رائِع! كُنْتُ دَوْمًا أتساءَلُ عَن دَوْري وفائِدَتي في الحياة، والآن فقط عَرفتُ أنِّي قد عِشْتُ لِأربعٍ وثلاثين سنةً كَي أمْتَلِئَ بِالدَّمِ، ثُمَّ أدفِقَهُ في تُرْبَةِ أولَئِكَ المُشَعْوِذين.

ولَكِن هُناكَ شَيءٌ غَيْرُ مَنْطِقِيٍّ، فَالْقَلْعَةَ لا تَدْخُلُ مَرْحَلَةَ الشَّيْخُوخَةِ قَبْلَ العَلامَةِ التَّحْذيرِيَّةِ، والَّتي هِي احتِضارُ المَلِكِ... والمَلِكُ كما رأيتُهُ لا يَحْتَضِرُ، كما أنَّ المَمْلَكَةَ تَبْدو كالعَروسِ لَيْلَةَ دُخْلَتِها.. وسُؤاله لي عَنْ سَبَبِ قُدومِي في وَقْتٍ لا تَحْتاجُ فيهِ المَمْلَكَةُ لِإنْسانٍ، يَعْني أنَّها بالفعل لا تزال في أوْجِ شَبابِها ولا تَطْلُبُ دِماءً جَديدة..

فَلِمَ قَد زُجَّ بِنا إلى المَمْلَكَةِ في هذا الوَقتِ؟. وكذلك كيفَ كانَتِ المَمْلَكَةُ مَيِّتَةً في أوَّلِ زِيارَةٍ لي والآنَ عادَتِ الحَياةُ لها؟ أفَرَجِعْتُ بِالزَّمَنِ أم تَقَدَّمْتُ به؟

..يبدو أنِّي سَأمكُثُ في سِجْنِ هذا الزمن إلى أن تَشيخَ الْقَلْعَةُ ويَموتَ المَلِكُ فَأُذْبَحَ... ولكنِّي لَستُ إلَّا وَاحِدًا مِنْ عَشَرِ ذَبائِح غائِبَة، ولَستُ إلّا أسيرًا في انتظارِ سَفيهًا جَديدًا يشتري الحُكْمَ والشَّبابَ بِأرْواحِ تِسْعَةِ مَغدورين وطِفْلَةٍ بَريئَة، وَضِيعًا يُتاجِرُ بِدَمِ حَبيبٍ لَهُ في سَبيلِ خِدْمَةِ كائِناتٍ تَعْتَنِقُ دينَ السِّحْرِ، وتَحْيا بِأرْواحِ البُسَطاءِ وتَقْتاتُ مِنْ بَقايا الجُثَثِ.

***

الحِساب

«كَتَبْتَ الميثاقَ وما أوْفَيْتَ»... قالَ «خادِمُ القَلبِ» بِصَوْتٍ يُشْبِهُ الصَّدَى من وراءِ سِتارٍ أحْمَرٍ شَفَّاف، في صَرْحٍ فَيروزِيٍّ فَسيحٍ سَقْفُهُ سعوفُ النّخيلِ وحَوائِطُهُ سيقانُ البامبو المَهيب..

– بَلي، قَدْ فَعَلْتُ..

«أينَ عاشِرُهُم؟»

– لا أعْلَمُ لَهُ مَكانًا.

«مِنْ أيْنَ دَخَلْتُمْ؟»

– دَخَلْنا جَميعًا مِنْ نَفْسِ البابِ الرَّئيسِيِّ، ثُمَّ تَفَرَّقْنا بَيْنَ الأبْوابِ كَأَلْوانِ الطَّيْفِ كَما شَرَعْتُم.

«ولِمَ فَتَحْتُمُ البَنَفْسَجِيَّ؟ أفلا تَعلَمُ أنَّ هذه الأرْضَ مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِم؟»

– ولِمَ لَمْ تُؤصِدوهُ أنْتُم لِتَمْنَعونا مِنْ فَتْحِهِ؟

«أنتَ هُنا لِتُساءَلَ لا لِتَسْأَلَ!»

– أعتذر.

« كانَ تَرْكُ البابِ مَفْتوحًا لَيْسَ إلَّا اخْتِبارًا لَكَ، فَفَشَلْتَ فِيهِ كَما قَدْ فَشَلْتَ في غَيْرِهِ..»

– ولَكِنّي قد قُمْتُ بِإطْعامِ ثَلاثَتِهِمُ الخَشْخاشَ حَتَّى غابوا عَنِ الوَعْيِ، ثُمّ نقَلتُهُم إلى أراضٍ أُخْرَى مُتَفَرِّقَةٍ... ولَقَدْ وَضَعْتُ أُخْتي عِنْدَ البابِ

ذو الزُّجاجِ الأزْرَقِ لِتُعْبُرَ إلى أرْضِ الجَليدِ بَعْدَما تَسْتَفيق.. ولَكِنِّي لَمْ أجِدِ الوَقْتَ لفارس وأُخْتِهِ، فَقَدِ اسْتَفاقوا سَريعًا وأنا في طَريقِي بِهِم إلى أرْضِ النَّارِ حَتَّى كادوا يَرَوْنَنِي.. ثُمَّ زَيَّفْتُ أمْرَ قَتْلِ «فارِس» لِكَي أُشَتِّتَ عُقولَهُم وألبِسَ الأمورَ عَلَيْهِم..

«لَوْلا أنْ عادوا مِنَ المَوْتِ بِذاكِرَةٍ جَديدَةٍ لَكُنْتَ مَيْتًا الآنَ، ويالَيْتَكَ مِتَّ قَبْلَ أنْ أراكَ!»

- لَقَدْ فَعَلْتُ ما في وُسْعِي..

«لِمَ كَشَفْتَ سِرَّ السَّيْفِ وتَكَلَّمْتَ عَنْ وَصْفِهِ؟»

- أُقسِمُ أنِّي لَمْ أتَحَدَّث عَن سِرِّهِ أبَدًا! ولَقَدْ رَأَوْهُ على أيِّ حالٍ في أرْضِ البَنَفْسَج..

- أخْبِرْني عَنْ خَلدون

- غَطَّيْتُ بِمِعْطَفي إحدى الحُفَر في طَريقِ خُرُوجِهِ المُحتَمَل، وذلك بَعدَ أن قَرَأتَ التَّرَدُّدَ في وَجهِهِ بِشأنْ دُخُولِ المَتاهَةِ.. وبِالفِعلِ قَد حَدَثَ ما كُنتُ أخشاهُ واتَّجَهَ عائِدًا لِلْخارِجِ فَسَقَطَ في الحُفرَةِ، ولَكِنِّي لَمْ أُقابِلْهُ بَعْدَ ذلك ولا أعْلَمُ إلى أيْنَ ذَهَبَتْ بِه الهُوَّةُ.

« لَقَدْ ذَهَبَتْ بِهِ إلى العَكْسِ، فَتَقَدَّمَتْ بِهِ إلى ما لَمْ يَأتِ، ثُمَّ مَضَتْ بِهِ إلى ما مَضّى.. فَكانَتْ هَزَّةً وعَبَثًا في هَيْكَلِ المَتاهَةِ، فاخْتَلَّ النَّسَقُ فتَدَاخَلَتِ الألوانُ فذَهَبَتِ السَّطْوَةُ.. فَما قَتَلَتِ الصَّحراءُ، ولا حَرَقَتِ النِّيرانُ، ولا أكَلَتِ الوُحوشُ، ولا أفْنَى الجَليدُ...

ودَخَلَتِ الأكْباشُ أرْضَ البَنَفْسَجِ المُحَرَّمَةِ دونَ إذْنٍ لَهُم، وتَسَيَّدَتْ

إحْـدَى الذَّبائِـح اليَنْبوعَ، ومَسَّ مَنْ هُو غَيْرُكَ السَّـيْفَ، وعـاشَ مَنْ ماتَ وعادَ مَنْ قُتِلَ... واغْتَسَـلْتُمْ قَبْلَ أنْ نَسْمَحَ، واسْتَعْبَدْتُمُ التَّماسيحَ وشَرِبْتُمُ الرَّحيـقَ المُحَرَّمَ.. فَـما طُهِّرَتِ القرابينُ ولا امْتَصَّ الطِّينُ سَـوائِلَهُم... ولا خُـروجَ لِصاحِبِكُـم مِنْ سِـجْنِ المـاضي، ولا اكْتِـمالَ لِلْعَدَدِ ثُـمَّ لا دِماءَ في الإنـاءِ، ثُمَّ سَنَشـيخُ وتَشـيخُ الجِبـالُ والأرضُ... والخَطأُ خَطَـؤكَ والإثْمُ إثْمُكَ!»

– ألا زالَ المَلِكُ يَحْتَضِرُ؟

«الرُّوحُ في طَوْرِ الخُروجِ وسَاعَةُ التَّحَضُّرِ قَدْ حانَتْ»

– مازالَ هُناكَ وَقْتًا حَتَّى فِراقِ الرُّوحِ، أفَلا تخرُجُ على مَدارِ سَـنَواتٍ؟. دَعْنِـي أذْهَـبُ لِآتِيَكَ بِبَديـلٍ لِلقُرْبانِ العَالِقِ في الماضي، فَتَتِمَّ شَّـعائِرُ العيدِ وتَكْتَمِلَ الطُّقوسُ، ثُمَّ يَعودَ الصِّبا..

«لا خُروجَ لَكَ ولا رَحْمَةَ مِنَّا.. افْتَحوا الأرْضَ مِنْ تَحْتِهِ وانْفُثوا الأبْخِرَةَ مِنْها والسُّـمومَ فَيَتَقَـرَّح الجِلْدُ.. ثُمَّ انصبوا النِّصالَ عـلى الجانِبَيْنِ في طَريقِ سَـقْطَتِهِ فيَتَقَطَّـعِ اللَّحْـمُ.. وجَهِّـزوا المَدَقَّـاتِ لِلْعِظـامِ وأعْـدُّوا الطُّبـولَ لِلِاحْتِفـالِ.. اِعْتَصِروا الكَبِدَ وامْضُغوا العَيْنَيْنِ.. ثُمَّ اشْرَبوا الدَّمَ وابْصُقوا على الْوَجْهِ.. وارْقُصوا مَعَ الجُثَّةِ ثُمَّ أحْضِروا لِيَ القَلْبَ»

– أرجوكَ لا تَفْعَلْ!. فَلَقَدِ ارْتَكَبْتُ الآثامَ مِنْ أجْلِكُم واتَّبَعْتُ الكَذِبَ واعْتَنَقْتُ الشَّعْوَذَةِ.. ولَقَدْ قَطَعْتُ السَّفَرَ الطَّويلَ إلى بِئْرِ الجَزيرَةِ في المُحيطِ البَعيدِ، لِأُقْسِـمَ على الوَلاءِ والعَهْدِ بَيْنَ قَدَمَـيّ كاهِنِكُم الأكْبَرِ.. وبِعَهْدِي أوْفَيْتُ، ووَعْدِي نَفَّذْتُ..

ولَقَدْ جِئْتُ بِأُخْتي إلَيْكُم.. وقَتَلْتُ زَوْجَةَ «سُـلَيْمانَ» حينَ كَشَفَتْ أمْرَ كِتابِ السِّـحْرِ مع خادِمَتِكُم، ثُمَّ ألْصَقْتُ التُّهْمَةَ بِبَرِيءٍ وهَدَّدْتُ الشُّـهودَ بَعْدَ أن آذَيْتُهُم.. لا تُعْطُونِي الدُّرَّةَ والسَّيْفَ ولا تَجْعَلونِي حاكِمًا.. اسْجنوني أوِ اسْـتَعْبِدوني حَتَّى أموتَ، ولَكِنْ أتَوَسَّـلُ إلَيْكُم ألّا تَقْتُلوني أو تُعَذِّبوني! زِنوا إخْلاصِي كَما وَزَنْتُم حُمْقِي.

«شَريعَتُنـا لا تَنُـصُّ عـلى العَدْلِ أو الرَّحْمَـةِ، ولا تَعْـرِفُ إلّا لُغَةَ العُهودِ والْمواثيق... أخْرِجوا المَلْعونَ مِنْ الصَّرْحِ ونَفِّذوا الأمْرَ فيهِ ثُمَّ زيدوا عَلَيْه!»

... جُرَّ الخائِنُ مَع خَطاياهُ وغَدَراتِهِ إلى الأرْضِ المَفْتوحَةِ، وخَرَّ لِيَنْسَلِخَ ويُفْـرَمَ، ويُعْتَصَرَ ويُدَقَّ بينما الرُّوحُ فيهِ تَـدُبّ.. وانْقَطَعَ صَوْتُهُ فَحُرِمَ رَحْمَةَ الصِّراخِ والنِّداء.. ثُمَّ ماتَ بينما السَّـحَرَةُ يرقصون عِنْدَ رَأسِهِ، وتَعَفَّنَ بينما الغَوْغاءُ تَبْصَقُ على وَجْهِهِ...

أمَّـا جُرْمُـهُ فـلا يَـزالُ حَيًّا يَحْتَنِـكُ عَشَرَ رَقـابٍ... فَلا هو نـالَ الْحُكْمَ والغَنيمَـةَ بَعْـدَ أنْ جاءَ بِبَاهِظِ الأثْـمان، وَلا الضَّحايا أُطْلِـقَ سَراحُهُم بَعْدَ بُطْلانِ عَقْدِ السَّحَرَةِ مع الشَّيْطان.

التّاريخُ الأسوَد

كانَ فِي الجُزْءِ الثَّالِثِ مِنَ الدُّسْتورِ إرْثٌ تارِيخِيٌّ يَعُجُّ بِالقِصَصِ والوَقائِعِ والأنْباءِ، على لِسانِ أصْحابِها مِنَ السُّكَّانِ الأصْلِيينَ والزُّوَّارِ المَنْكوبينَ أمْثالي... سُجِّلَ بِدِقَّةٍ وتَفْصيلٍ بالِغَيْنِ، بَعْدَ أن نُقِلَ مِنْ نُقوشِ العَصَبِ لِيُحْفَرَ على الألواح.. فَتارِيخُ هذه المَمْلَكَةِ العَظيمَةِ مُكْتَظٌّ بِأحْداثِ الْقَسْوَةِ والِاعْتِداءِ، وحَضارَتُها قائِمَةٌ على الجَوْرِ والأذَى الدّائِمَيْنِ، ومَصْلَحَةُ المَمْلَكَةِ دَوْمًا تَعْلو على جَميعِ الحُقوقِ والأخْلاق.

لا أدْري لِمَ يُعَلَّقُ مِثْلَ هذا السِّجِلِّ في مَحْبَسي، ويُسْمَحَ لي أو لِغَيْرِي بِقِراءَتِه؟. أفَهل هُو مَنْسِيٌّ هُنا أمْ أنَّ أنا المَنْسِيُّ؟

طُفْتُ بَيْنَ التَّأَوُّهاتِ والتَّساؤلاتِ والمَظالِمِ المَحْكِيَّةِ في الكِتابِ، وكأنِّي أشْهَدُها أمام ناظِري على أرضِ الواقِعِ وبِكُلِّ وُضوحٍ... فقَرَأْتُ عَنْ مُنْخَنِقَةٍ لا تَدْري بِأيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ، ومَحْبوسٍ لا فِكْرَةً لَدَيْهِ عَن تُهْمَتِهُ، ومَحْكومٍ عَلَيْهِ لَمْ يُنَبَّأْ بِجَريمَتِهِ..

وَمِنَ البَشَرِ أطْفالٌ يَظُنُّونَ أنْفُسَهُم في مَدينَةِ الألعابِ فَيَتَمَرَّدونَ ويُطالِبونَ بِالعَوْدَةِ إلى الْبَيْتِ، فَهِيَ كما يَقولونَ لا تَصْلُحُ إلّا لِلْكِبارِ.. ومِنْهُم أحبابٌ يَتَألَّمونَ مِنَ الغَدْرِ أكثَرَ مِنْ أَلَمِهِم مِنَ العَذابِ.. وآباءٌ وأُمَّهاتٌ يَشْتَهونَ روائِحَ أطفالٍ تَرَكوهُم خَلْفَهُم، دونَ أنْ يَعْلَموا أنَّهُم لَنْ يَعودوا إلَيْهِم أبَدًا.. وشَبابٌ وشابَّاتٌ تُؤخَذُ مِنْهُمُ الحَياةُ وهُم لَمْ يَسْتَهِلُّوها

بَعْد... وسُكَّانٌ مِنْ أهْلِ المَمْلَكَةِ مُسْتَعْبَدينَ ومُسَخَّرينَ بِلا رَحْمَةٍ أو مُقابِلٍ، يَقْتُلونَ أنْفُسَهُم لِيَتَحَرَّروا، ويَمْتَنِعونَ عَنِ الزَّواجِ كي لا يَسْريَ ميراث السُّخْرَةِ في سُلالاتِهِم.

وفَهِمْتُ مِنْ خِلالِ قِراءَتي؛ أنَّ بِمَوْتِ القَلْعَةِ تَموتُ المَمْلَكَةُ كُلَّها، وأنَّ عَيْنَ القَلْعَةِ هي أرضُ البَنَفْسَج، ويَنْبوعُها هُو شُرْيانُ الحَياةِ الرَّئيسِيُّ وهُو البُقْعَةُ المُقَدَّسَة... والنَّخْلَةُ هِي العَصَبُ والسَّيْفُ هُو العَقْلُ، وثَمَرَةُ النَّخْلَةُ هِي الدُّرَّةُ والرُّوحُ... وأنَّ الحاكِمَ لا يَكونُ سِوَى مِنْ بَني الإنْسان، فيتَضاعَفُ عُمْرُ جَسَدِهِ إلى خَمْسَةِ أضْعافٍ وقُوَّتُهُ وسُلْطَتُهُ إلى مِئاتِ الأضعافِ... وأنَّ احْتِضارَهُ هو علامَةُ اقْتِرابِ شَيْخوخَةِ القَلْعَةِ المَرْهُونَةِ بِطولِ حَياتِهِ، ثُمَّ المَمْلَكَةِ كُلها.. وهو نِداءٌ إلى وَلِيٍّ لِلْعَهْدِ جَديدٍ ودَعْوَةٌ لِإعْدادِ حَفْلٍ لِلدِّماءِ مَجيد..

***

الأسرَى

دَخَـلَ المَعْبَدَ عِمْلاقٌ مُنَفِّرٌ يَبْدو عَلَيْهِ الغَباءُ الشَّـديدُ بِشَـكْلٍ واضِح... كانَ عارِيًا مُشَـعَّثَ الرَّأْسِ، يَحمِلُ ثَلاثَة حِبالٍ سَميكَةٍ مع تِسْع أُسْطُوانَاتٍ حَديدِيَّـةٍ فَوْقَ كَتِفِهِ اليُسْرَى، بَيْنَما عـلى اليُمْنَى كان يَرْكَبُ قِرْدٌ صَغيرٌ أَحْمَر فاقِعٌ لَوْنُهُ لا يَسُرُّ النَّاظِرين، يَبدو مَسْـلوخَ الجِلْـدِ بِثَلاثَةِ عُيونٍ، لَهُ خُرْطومٌ قَصيرٌ وذَيْلان طَويلان كَثيفا الشَّعْرِ الأبيض.

قـامَ حامِلـهُ بِالتَّحَدُّثِ بِصَـوْتٍ غَليظٍ مع شَـخْصٍ غَيْرِ مَرْئِـيٍّ لَنا، ثُمَّ أَتْبَعَ بِصَوْتٍ رَقيقٍ هامِسًـا في أُذُنِ القِرْدِ المُتَعَلِّقِ به، لِيُحْدِثَ صاحِبُ الأُذُنِ ضَجيجَ ضَحِكٍ شَديدَ العُلُوِّ والغَرابَةِ مِمَّا سَمِعَ..

وخَرَجَ بعدَها ذلك الكائِنُ الأَحْمَرُ مِنَ المَعْبَدِ، بَيْنَما تَقَدَّمَ العِمْلاقُ نَحْوَنا مُتَبَخْـتِرًا.. ثُمَّ قامَ بِوَضعِ رِجْلَيّ كُلٍّ مِنَّا في إحدى أُسْـطُوانَاتِهِ، وأَتْبَعَ بِرَبْطِ طَرَف أَحَدِ حِبالِهِ في ذِراعِ «رَيان» بِعُقْدَةٍ شَـديدَةِ الإحْكام.. ثُمَّ أَخَذَ يَدورُ حَوْلَنا مُمْسِـكًا بِالْحَبْـلِ بِسُرْعَةٍ تَفوقُ سُرْعَـةَ الفَهْدِ، حَتَّى تَقَيَّدْنـا جَميعًا مَعًا كَحِزْمَـةٍ كَبيرَةٍ مِنَ الجَرْجيرِ، ثُـمَّ انْتَهَى بِعَقْدِ طَرَف الحَبْلِ الآخَرِ في مِعْصَمِ رَنـا.. ثُمَّ أعادَ الكَرَّةَ مَعَ حَبْلَيْنِ آخَرَيْنِ، بِدايَتُهُما عِنْدَ «رَيان» ونِهايَتُهُما عِنْدَ رَنا...

وأخـيرًا بَعْـدَ أن فـرغَ مِنَّـا، أَحْدَثَ صَفـيرًا طَويلًا أَتَـى بِالقِـرْدِ الأَحْمَرِ وأَصْحابِهِ المَدْعُوِّينَ إلى مِهْرَجان الأَسْرِ وتَوْزيعِ الغَنائِم..

قامَتِ القِرَدَةُ بِسَحْبِنا في جَميعِ الجِهاتِ ودَفْعِنا بِغَيْرِ مَنْطِقٍ أو نِظامٍ، حَتَّى ظَنَنّا أنَّهُم مُصابونَ بِالعَمَى.. واسْتَمَرَّتِ المَهانَةُ وتَعاظَمَ الِاسْتِهْزاءُ بِنا، إلى أنْ كُشِفَ الغطاءُ عَنِ الشَّخْصِ الغَيْرِ مَرْئِيّ الَّذي قد أغْلَظَ لَهُ العِملاقُ القَوْلَ من قبل.. فَسَكَنَتِ القِرَدَةُ بِظُهورِهِ وانْزَوَتْ في الأرْكان حينَ تَراءَى لَها...

كانَ قَصيرًا أشْبَهُ ما يَكونُ بِالقِزْم، ومُغَطًّى بِأكْمَلِهْ بِلِباسٍ أخْضَرٍ مِنَ الصُّوفِ لا يُظْهِرُ مِنْهُ سِوَى أصابِعِ قَدَمَيْهِ التِّسْعَةِ... اِتَّجَهَ نَحْوَ العِمْلاقِ في خُطُواتٍ خَفيفَةٍ كالثُّعْبان، ثُمَّ تَناحَرَ كِلاهُما إلى أنِ انْتَصَرَ العِمْلاقُ بِقَذيفَةٍ مِنَ الزُّجاجِ ألقاها القِرْدُ على مَجْهولِ الوَجْهِ غامِضِ الهَوِيَّةِ، فَافْتَرَشَ رِداؤهُ الأخْضَرُ الأرْضَ بَعْدَ أنْ تَلاشَى جَسَدُهُ في لَحْظَةٍ..

فعادَتْ بَعْدَها مُباشَرَةً أجْواءُ المَهْرَجانِ أكثرَ صَخَبًا تَحْتَ رِعايَةِ المارِدِ الأبْلَهِ، حَتَّى وَصَلَتْ بِنا القِرَدَةُ بَعْدَ طولِ عَناءٍ وصُعودٍ شاقٍّ إلى قِمَّةِ الجَبَلِ، حَيْثُ توجَدُ قاعَةٌ كَبيرَةٌ مِنَ عَشَرِ غُرَفٍ زُجاجِيَّةٍ شَفَّافَةٍ ومُتَجاوِرَةٍ... وكانَتْ تَنْفُذُ الأضْواءُ والأصْواتُ مِنْ خِلالِها بِوُضوحٍ شَديدٍ، حَتَّى اِسْتَطَعْنا مِنْ خِلالِها رُؤْيَةَ كُلِّ ما يَصيرُ أسْفَلَنا في المُمْلَكَةِ بِدِقَّةٍ بالِغَةٍ.. فَقَدْ كانَ ذلك الزُّجاجُ يُكَبِّرُ المَشْهَدَ ويُقَرِّبُهُ في ثَوانٍ بِأمْرٍ مِنْ أصابِعِنا كَشاشاتِ هَواتِفِنا، لِنَرَى سُجَّانَنا بَعْدَ أنْ اسْتَعْبَدونا وهُم يَسيحونَ في الأرضِ أحْرارًا...

قامَتِ القُرودُ أخيرًا بِفَكِّ أربِطَتِنا بعد أن وصلنا إلى القاعة، مَعَ الإبْقاءِ على عُقْدَتَي ذِراعِ «ريان» ومِعْصَمِ «رَنا».. ثُمَّ أخَذَتْ تَخْلَعُ المَلابِسَ مِنْ على

أجْسادِنا والأحْذِيَةَ مِنَ أقْدامِنا إنْ وُجِدَت.. وكَسَتْنا بعد ذَلِكَ بِصُوفٍ حامٍ مُثيرٍ لِلحَكَّةِ مُدِرٍّ لِلعَرَقِ مُحْدِثٍ لِلتَّقَرُّحاتِ، ثُم دَفَعَتْ كُلًّا مِنَّا إلى داخِلِ غُرْفَتِهِ باسْتِثْناءِ أصحابِ العُقَدْ..

وبِمُجَرَّدِ أنْ خَطَوْنا إلى الدَّاخِلِ، داسَتْ بَواطِنُ أقْدامِنا جَمَراتٍ مُشْتَعِلَةً، لَمْ نَلْحَظْها إلَّا بَعْدَ الحَرْقِ الَّذي قد تَسَبَّبَ في طَبْعِ عَلامَةٍ كالخِتْمِ في باطِنِ قَدَمِ كُلٍّ مِنَّا... وغُلِّقَتِ الأبوابُ فَوْرًا بِمُجَرَّدِ أنْ دَخَلْنا المَصْيَدَةَ الزُّجاجِيَّةَ، قَبْلَ أنْ يَغيبَ المَرْبوطَانِ عَنْ أنْظارِنا خَلْفَ السُّدِّ في صُحْبَةِ العِمْلاقِ وقِرَدَتِهِ، لِيَهجرونا خائِفينَ لَمْ يَبْقَ لَنا إلَّا جَهْلنا..

... كُنَّا نَنامُ كُلَّ يَومٍ بِمواعِيدَ صارِمَةٍ تَحْتَ مِصْباحٍ يُمْطِرُ عَلَيْنا نورًا بُرْتُقالِيًّا، يُنْهِكُ الأعْيُنَ ويَخِزُ الرَّأْسَ ويُفْقِدُ العَقْلَ سَلامَتَهُ.. ثُمَّ يُؤْذَنُ لَنا بَعْدَ حينٍ أنْ نَسْتَيْقِظَ في ظَّلامٍ حالِكٍ فَنكونَ كَالغَريقِ في عُمْقِ الفَضاءِ، فَنَنْسَى هَيْئَةَ الأشْكالِ وصِفَةَ الألْوانِ إلى أجَلٍ غَيْرِ مُسَمًّى..

ثُمَّ نَرْجِعُ لِلنَّوْمِ تَحْتَ قَذائِفِ المِصْباحِ مُجَدَّدًا بِأَمْرٍ لا جِدالَ فيهِ مِنْ صاحِبِ السِّجْنِ، لِتَعودَ الكَرَّةُ بِنا مِرارًا وتِكْرارًا أيَّامًا أو شُهورًا أو سِنينًا... لا نأكُلُ إلَّا الحَشائِشَ ولا نَشْرَبُ غَيْرَ أَلْبانِ القُرودِ، ولا نَلْبَسُ سِوَى الخُيوشِ الَّتي لَمْ تَتَغَيَّرْ على أجْسادِنا مُنْذُ أنْ وَصَلْنا إلى هذه الغُرَفِ في الماضي البَعيدِ...

مَكَثْنا في تلك الدَّوْرَةِ الكابوسِيَّةِ في مَحابِسِنا لِوَقْتٍ غَيْرِ مَعْلوم، إلى أن جاءَ يَوْمٌ لَمْ نَسْتَطِعِ النَّوْمَ فيهِ مِن دَوِيٍّ حَدَثٍ بالِغِ الأهَمِّيَّةِ... اِتَّسَعَتْ عُيونُنا

مِـنْ وَراءِ حَوائِطِ غُرَفِنا الشَّـفَّافَةِ لِنَشْـهَدَ الحَدَثَ، حَتَّى بَـدَا لَنا مِنْ خَلْفِ السُّورِ البَعيدِ وَجْهانِ مألوفانِ...

إنَّهُما «ريانُ» و«رَنا»، مَدْهونَانِ بِالأَخْضَرِ ومَرْسومٌ على كامِلِ وَجْهَيْهِما خُطـوط ونِقاط حَمْراء، يَرْتَدِيـانِ مَلابِسَ حَريرِيَّةً فَضْفاضَـةً تَزْخَرُ بَجميعِ الألوان.. على رأسِهِ عُصْفورٌ وعلى رَأسِها غُراب..

جاءَا مَحْمولَيْنِ على خَشَبَةٍ تَرْفَعُها كُفوفُ المَرَدَةِ مع أَنْغامِ طَرْقِ الطُّبولِ ونَفْـخِ المَزامير واهْتِـزازِ الأَوْتار.. لَقَدْ كانَـتْ «رَنا» تَحْمِلُ شَـيْئًا، بل ثَلاثَةَ أشـياء.. تَحْمِلُهُم بِداخِلِها وتَتَمَخَّضُ.. تَخْشَـى لَفْظَهُم وتَطْمَعُ في حَبْسِهِم داخِلَ غِشـاءِ الرَّحِم.. تَنْظُرُ لِزَوْجِها وهي تَسـيلُ مِنْها الدِّماءُ، فَيَرُدُّ عَلَيْها بِالصَّمْـتِ ثُـمَّ يُديـرُ رأسَـهُ.. فَتَـصْرُخُ قائِلَـةً؛ «لا أُريدُ الإنْجـابَ لا أُريدُ لِأطفالي العَذابَ».. فَيُكَمَّمُ فاهُها بَعْدَ أَنْ يُحْشَرَ فيهِ الطِّينُ مع الأشواك..

مَدَّدَهـا الحَمَلَةُ الجِسـامُ على صَحْـنٍ نُحاسِيٍّ كَبيرٍ تَحْتَ قُبَّـةٍ مِنَ أَوْراقِ الشَّجَرِ المُشْتَعِلِ، لِيَسْتَأصِلوا كُلَّ ما في وِعائِها الرَّقيقِ مِنْ أَطْفالٍ مُيَتَّمين... قَطَعَ صِراخَ الأُمِّ صَوْتُ احْتِكاكِ قَدَمَيْنِ ذَوي أصابع تِسعةٍ بِأوراقِ الشَّجَرِ المُنتـشرة على الأرضِ.. إنَّهُ القِزمُ ذو الرِّداءِ الأخضَرِ مُجَدَّدًا، يَعْتَرِضُ طَريقَ الحَمَلَةِ ويشهر عَصاهُ في وُجوهِهِم...

تَهَلَّـلَ وَجْهُ الأُمِّ واهْتَزَّ الأبُ في لَهْفَةٍ كالمَجنونِ، وما هي إلَّا دَقائِق حَتَّى اسْـوَدَّ وَجْهَاهُما مُجَدَّدًا، بينـما يُتابِعانِ القِزمَ وهو يُقـذَفُ بِنَفْسِ القَذيفَةِ من نَفـسِ القِردِ لِتَذْهَبَ ريحُهُ مَرَّةً أُخْـرَى.. وحَلَّ اليَأسُ على كُلِّ بَشَرِيٍّ يقف حَولَ أرضِ المعركةِ من النَّصرِ في حَربٍ قد انتَهَتْ من قَبلِ أن تبدَأ..

..وَضَعَ الحَمَلَةُ وأعْوانُهُمُ المَواليدَ الثَّلاثَةَ في جِعابٍ مِنَ الفِضَّةِ، وجَمَعوا دِماءَ النِّفاسِ في كأسٍ مَلَكِيٍّ رَهيبٍ وكأنَّهُم يَجْمَعونَ الذَّهَبَ والألماسَ، قَبْلَ أنْ يَتْرُكوا النَّفَساءَ الثَّكْلَى على النُّحاسِ وَحْدَها لِلْعَويلِ وخَواءِ الأَحْشاءِ...

كانَ ذَلِكَ أكْرَهُ ما شاهَدْنا وأقْسى ما عانَيْنا مُنذُ عَلِقَتْ أرْواحُنا في بَطْنِ هذه المَتاهَةِ الَّتي تَتَنَفَّسُ الخَبَثَ وتَتَلَذَّذُ بِالنَّجَسِ... ولَكِنَّ الصَّمْتَ رَغْمَ ذَلِكَ لَمْ يَبْرَحْ مَكانَهُ في حَناجِرِنا، والخَوْفَ لم يَتْرُكْ لَلْغَضَبِ مَكانًا في صُدُورِنا.. فاسْتَسْلَمْنا مَعَهُما لِمَصائِرِنا المَجْهولَةِ ولِعَذابِنا المَعْلومِ، بَعْدَ أنْ وَضَعْنا ثَوْرَةَ النَّفْسِ والدِّفاعَ عَنِ الحَياةِ جانِبًا..

وَقَبْلَ أنْ تَقومَ المَكْلومَةُ الطَّريحَةُ مِنْ على صَحْنِها، أوتِيَ بِالمَلِكِ المُحْتَضِرِ وهُو ذَليلُ سَكَراتِهِ الأخيرَةِ في صُنْدوقٍ أبْيَض مَكْشوفٍ، ثُمَّ أُسْنِدَ على جِذْعِ النَّخْلَةِ العَظيمَةِ ورُبِطَ بِهِ في وَضْعِ الوُقوفِ مُسْتَقيمَ الظَّهْرِ رافِعَ الرَّأسِ.. وذلك قبلَ أن يُجَرَّدَ رَأسُهُ من تاجِ الدُّرَّةِ، ويُسحَبَ الصَّوْلَجانُ ثُمَّ السَّيْفُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، تارِكًا وَراءَهُ جَرْحًا غائِرًا مِنْ أثَرِ الفِراقِ...

عَمَّ الصَّمْتُ وانْقَطَعَ الغِناءُ بَعْدَ مَوْتِ المَلِكَ، لِيَبْدَأَ الحِدادُ بانْحِسارِ الأنْوارِ وسَحْقِ بَيوضِ الفَراشاتِ... ثُمَّ ظَهَرَتْ فَوْقَ الجَسَدِ المُتَيَبِّسِ دَوَّامَةٌ في السَّماءِ تَخْتَصُّهُ بِالكَنْسِ والشَّفْطِ إلى مَحْبَسِهِ الجَديدِ، لِيَتَحَوَّلَ إلى الرَّمادِ المَنثورِ تحت أقدام النّخلة، ثُمّ يَكْتَسِيَ الهَواءُ بِالحُمْرَةِ والوُجوهُ بِالزُّرْقَةِ، وتَتَحَوَّلُ الأرْضُ لِكُتَلٍ مِنَ الْفَحْمِ مِنْ بَعْدِه...

ولَكِنَّ كُدرَةَ الهواءِ وضجيجَ المَوتِ لَمْ يَمْنَعا أصواتِ الملائكةِ من

التَّجَـلِّي، فكانـت أصوات الصغـار الثلاثة هي أصفى ما اخـترقَ أرواحَنا مُنـذُ سـقطت عُروشُ تلـك المملكـة عـلى رُؤوسـنا.. كان أحدُهُم يبكي مُسـتَغيثًا من سِلسِـلَةٍ مَربوطَةٍ بإحكام حَولَ رأسـهِ اللَّيِّنِ، وآخَرٌ مُتألِّمًا من خِتْمِ الجَمْرَة المُتَّقِدَةِ في باطِنِ قَدَمِه.. أمَّا الثَّالِثُ، فَلَم يبكِ إلَّا اشتِياقًا لِلضَّمِ وبَحثًـا عن صَـدْرِ أُمِّهِ... واسـتَمَرَّت ضَوضاءُ البُكاءِ تَغسِـلُ الأرض من رِجسِـها، إلى أنْ تلاشَـت تلك النّغـماتُ الحَزينَةُ بعيدًا عن مسـامعنا، بعدَ أن زُجَّ بِالمَربـوطِ في مَخْبَـإٍ خَلْفَ سـورٍ عَظيم، وبِالمَختـومِ في إحْدَى الغُرَفِ الزُّجاجِيَّـةِ إلى جِوارِنا، ثُمَّ بِأبَوَيْهُـما في الغُرْفَتَيْنِ الباقِيَتَـيْنِ.. لِيَكْتَمِلَ العَدَدُ وتُمْلَأَ جَميعُ الفَجَواتِ.

خَلدون الحافِظُ الجَديد

أخَـذَ رَأسْي في الِامْتِـلاءِ كَوِعـاءٍ مَـرِنٍ غَيْرِ مُتَناهـي السِّـعَةِ لا يَتَوَقَّفُ أبـدًا عَنِ التَّمَـدُّدِ، وكُلَّما قَرَأْتُ كُلَّما ازْدادَتْ ذاكِرَتي حِـدَّةً وعُمْقًا وتَنْظيمًا، فَصِرْتُ كَأرْشـيفِ مَكْتَبَةٍ ضَخْمَةٍ طاعِنَةٍ في السِّـنِّ... لقد أصبَحتُ جُزءًا من ذاكِرَةِ المَمْلَكَةِ العَتيقَةِ، أحْفَظَ المَلَفَّات مَعَ الحافِظينَ وأُسَـجِّلَ البَياناتِ في الكُتُبِ مَعَ المُسَجِّلين..

وانْشَقَّتِ الأَساوِرُ تَدْريجِيًّا في يَدَيَّ لِتَنفيذِ مُهِمَّةٍ عاجِلَة لا أعلَمُ ما هي، فوَجَدتُ نَفسي أمسـك بِالقَلَـمِ فَوْرًا، أَكْتُبُ بَنودًا تَـصْرُخُ حَديثًا في رَأسي وبَيْنَ أصابِعي قائلة؛..

(إذا تَعَمْلَـقَ الشَّرُّ في نُفوسِ الذَّبائِح وتَقَزَّمَ الخَـيْرُ فِيهِم، تَقْذِفُهُ الخَطايا بِثَمَرِ النَّخْلِ يَمْحوهُ).. ثُمَّ أتْبعْتُ بِالمَزيدِ والمَزيدِ؛.. (تُسَـجَّلُ الأنْباءُ داخِلَ جِـذْعِ العَصَبِ الكَبيرِ ثُمَّ لا يُمَسُّ السَّـيْفُ بِغَيْرِ حَـقٍّ)... (أوَّلُ المَوْلُودينِ صاحِبُ الدَّمِ المَفْقودِ وثانِيهم صاحِبُ العَرْشِ الأجْرَدِ وثالِثُهُم مِنْ حداث الحَفَظَةِ)... (تَمُرُّ السَّـنَةُ على الثَّاني والثَّالِثِ خَمْسَـة، وعلى الأوَّلِ واحِدَة)... (إنْ يَتَجَلَّطِ الشُّريانُ نَنْفَجْرْ ونَتَزَلْزَلْ)... (إنْ يُنْتَزَعِ السَّـيْفُ وتُهْدَرِ الثَّمَرَةُ، يُبَدَّدِ السُّلْطانُ ويَعْثُ الفَسادُ).

أخَذَتْ رَأسي تَتَخَبَّطُ في الجِدارِ كالمَمْسـوسِ وكأنَّ روحًا قَدْ تَلَبَّسَتْني، بينـما القَلَمُ يُحَـرِّكُ أصابِعي دون تَعَقُّلٍ مِنهُ أو إرادةٍ مِنِّي... لا أفْقَهُ ما أكْتُبُ

ولا أعْلَـمُ إنْ كُنْـتُ أُدَوِّنُ التَّاريـخَ، أمْ أتَنَبَّأُ بِمسـتقبلٍ أُشرِبتُهُ حينَ خَطَّت قدماي هذه الأرضَ في أوَّلِ مَرَّةٍ...

... وتَوَقَّـفَ أخيرًا القَلَمُ عَـنْ زَلْزَلَتي مَتبوعًا بِقَلبـي وأنفاسي، فَلَمْ أرَ بَعْدَها إلَّا الظَّلامَ ولَمْ أسْمَعْ إلَّا طَنينَ السُّكون لأيَّامٍ، أو رُبَّما أسابيع..

***

اقتِرابُ المَوعِد

«لَقَدْ رَأَتْكَ أُمِّي»... قالَت «ياسـمين» وهي مُمَدَّدَةُ الذِّراعَينِ والرِّجلَينِ على أرضِ مَحبَسِها الزُّجاجِيِّ، بِصَوتٍ لا عِتابَ فيهِ ولا أَلَم.

«عَـمَّ تَتَحَدَّثـينَ؟!»... رَدَّ أبوها بعد دَقيقَةٍ تسـارَعَت فيهـا دَقَّاتُ قَلبِهِ وتَسَلَّلَ العَرَقُ إلى عَيْنَيْهِ.

– وأنا أيضًا قَدْ رَأَيْتُكَ.

– لا أفْهَمُ شَيْئًا مِنْ كَلامِكِ.

– رأيْناكَ مَع «باربرا»، أنتَ تُحِبُّها .

– ليس صحيحًا!

– هل تَزَوَّجْتَها؟

– بِالطَّبْعِ لَمْ أفْعَلْ!

– أنتَ كَذَّاب.. كُنْتَ تَكْذِبُ دائِمًا على أُمِّي، وكَذَلِكَ عَلَيَّ.

– ياسمين! كيفَ تتحدَّثين معي هكذا؟!

– وكَذِبتَ أيضًا عَلَيّ بِشأنِ مَوتِها..

– لَمْ يَكُـنْ ذَلِكَ إلَّا بِسَـبَبِ خَوْفِي الشَّـديدِ عَلَيْكِ، وهو مـا جَعَلَنِي بِلا وَعْيٍ أُخْفِي الأمْرَ عَنْكِ..

– ثُمَّ أخْبَرْتَ الجَميعَ أنِّي أُعانِي مِنَ الِاكْتِئابِ ولا أُستطيع تَصديق خَبَرَ وفاتها.. أأنْتَ قَتَلْتَها؟

- أُقْسِمُ أنَّ لا عِلاقَةَ لِي بِذلك الأمر ولا أعْلَمُ عَنْهُ شَيْئًا!

... «كَمْ مَرَّ مِنَ السِّنينِ عَلَيْنا بَيْنما يُمَثَّلُ بِجُثَتِنا ونَحْنُ أحياء؟»... تَوَجَّهَ «فـارِس» بِحَديثِـهِ إلى «حمـزة» وكأنَّهُ يُؤدِّي مشـهدًا لِرَجُـلٍ يَحمِلُ زُجاجة الخمر ويتجشأ، مُتجاهلًا دراما «ياسمين» و«سليمان».

«أرْبَعـة أو خَمْسـة أعْوامٍ عـلى الأقَـلِّ».. رَدَّ «حَمْزَةُ» بِفُتـورٍ وهو يَدْعَكُ عَيْنَيْهِ ويَمُطُّ جِفنَيْهِ إلى الخارِجِ كَطِفلٍ في الرّابِعة من عمرِهِ.

- وكيف عَلِمتَ ذَلِكَ؟

- ألَا يبدو لَكَ طِفْلُ «رَيان» و«رَنا» في الخامسة أو الرابعة تقريبا؟ أولا تُلاحِظ جسد «ياسمين» كذلك؟

« تُـرَى ما الَّذي قد صارَ بِأخي؟»... سـألَت «شـيري» صَديقَتها الَّتي تَحُكُّ بَطْنَهـا وفَخذَيها كفأرٍ أصابَهُ الجَرَبُ، فَـرَدَّت عَلَيها بِكَلِماتٍ تَقطَعُها أنفـاسٌ عَميقَةٌ غَيرُ سَلِسَـةٍ، قائلـة: «لَم يَقُصُّوا شُـعورَنا أو يقلموا أظافرنا مُنذُ شُـهورٍ، وكذلك لم نَغتسل مُنذُ أكثر من سَنَةٍ على الأقَلّ»... ثُمَّ أتبَعَت بِصَرخَةٍ قَصيرَةٍ مَكتومَةٍ، فَلَطْمَةٍ غَير مَقصودَةٍ على وَجهِها.

لم يقطـعْ ثرثرتَهُم غَيرُ دُخُولِ السَّـجَّانِ بِأطباقِ الطّعـام وأواني الشّراب الفارِغَة... تفاجَأَ بَعضُهُم خَوفًا واتَّسَـعت عُيـونُ مُعظَمِهُم فَرَحًا.. فَرَحًا بِالخـلاصِ مـن طعـامٍ وشَرابٍ تتعَفَّـفُ منه الـكِلابُ، وخوفًـا من الموت عطشًا وجوعًا...

«ما المُفترض علينا فِعله بهذه الأطباق؟!»... سـألَ «فارس» وهو ينظر

حَولَهُ في شَـكٍّ منه في سـلامة عَيْنَيْهِ، وخَوفٍ على حياته لا يُحسِـنُ إخفاءَهُ مهما حَاول.

«لابُـدَّ أنَّ الموعِدَ قدِ اقترَبَ»... قال «ريـان» مُتَوَجِّهًا بكلمته إلى «رنا» وهو يهز رأسَهُ كالدَّراويش... ولكنَّ أحَدًا لم يُجِبْهُ أو يسألْهُ، رُبَّما اسْتِخْفافًا بعَقلَهِ الشِّبْهِ غائِب مُنذُ عَودَتِهما.. أو رُبَّما خَوفًا من الاطلاعِ على حقيقةٍ قد كُشِـفَت لهُما وراء الأسـوار، حيثُ زُوِّجَا أمام سَـيِّدَةِ المُسوخِ وتحت أقدام الأباليس.

قَرارُ خلدون الأخير

اِجْتَمَعَ الماضِي والمُسْتَقْبَلُ في رَأسي، فَما عادَتْ تَخْفَى عَلَيَّ مِنْهُما صُورَةٌ أو مَشْهَدٌ في السِّرِّ أو فِي الْعَلَنِ... لا أعْرِفُ ما الَّذي يُمْكِنُنِي فِعْلُهُ بِعِلْمي الغَزيرِ هذا، وكيفَ أَمْنَعُ ما سأفْعَلُ أو أُصَحِّحُ ما قد فَعَلْتُ؟

ولِمَ أهْتَمُّ مِنَ الأساسِ وأنا لَسْتُ مِنْ أهْلِ هذه الأرْضِ المُلَوَّثَةِ قَلْبًا وقالِبًا؟. فما الَّذي قد يُجْبِرُني على الاستسلام لِاسْتِعْبادِي واسْتِعْمالي كَوِحْدَةِ تَخْزينٍ لِتُراثِهِم الفاسِدِ إلى أن أفْنَى؟

فَسَأقْتُلُ نَفْسي وأتَحَرَّرُ مِنَ ذِكْرَياتٍ لَيْسَتْ مِنِّي ولَسْتُ مِنْها، لَبِناتُها عِظامُ البَشَرِ ومَلاطُها الدَّم وطِلاؤُها السِّحر.. فَتاريخُ هَذِهِ الأُمَّةِ مُمْتَدَّةٌ جُذُورُهُ إلى ما يُسَمَّى بِيَوْمِ الِانْتِهاكِ والغَلَبَةِ، يَوْمَ اسْتَضْعَفوا أقْوامًا كانَتْ تَسْكُنُ هذه الأرْضَ حِينَ كانَتْ طَيِّبَةً، لِيَعيثوا فيها الفَسادَ بَعْدَ اغْتِصابِها ويَسْتَبْدِلوا الخَبَثَ بِالطُّهْرِ، ثُمَّ يُحَرِّفوا النَّواميسَ ويُشَوِّهوا التَّشْريعاتِ، ويَسِنُّوا قَوانِينَ مَوَادُّها الباطِلُ وصِياغَتُها المُنْكَر..

فَهل أكْتُمُ أنفاسي حَتَّى أخْتَنِقَ؟ فِكْرَةٌ جَيِّدَةٌ! ولَكِن كَيْفَ سأخْدَعُ عَقْلي لِفِعْلِ هذا؟

مِنَ المُمْكِنِ أنْ أغْرِسَ هذا القَلَمَ في قَلْبي، ولكِنَّهُ لِلأسَفِ صَغيرٌ جِدًّا ولَنْ يَصِلَ إلَيْهِ.. فَهل أقْطَعُ بِهِ الشَّرايينَ إذًا؟ لا.. ليسَ حادًّا كِفايَةً.. إذًا سَأبْلَعُهُ حَتَّى يُحْدِثَ انْسِدَادًا في أمْعائي، ولَكِنِّي لا أمْتَلِكُ الجُرْأَةَ الكافِيَةَ لِفِعلِ ذَلِكَ..

إذًا سـأتَوَقَّفُ عَنْ الانحناءِ كَالزَرافاتِ لِأكْلِ الحَشـائِش الَّتي يُدْفَعُ إلَيَّ بِها مِنْ تَحْتِ الأرْضِ، ولنْ أشْرَبَ ذاكَ المَشْروبَ الأبيْضَ المُتَشَـبِّهَ بالحَليبِ كَريـهَ الطَّعْم والرَّائِحَة، حَتَّى أتَضَوَّرَ جوعًا وأموتَ عَطَشًـا، فأصيرَ جيفَةً لا ذَاكِرَةَ لِها تُسَمَّمُ، ولا روحَ لَها تُعَذَّبُ..

وأرْجـو أنْ يُنْقِـذَ مَـوْتي روحًـا حالِمَـةً بَريئَـةً! سـيدفعها الحَـظُّ يومًا ما للإحتماء في المكان الخاطِئ..

***

المَلِكُ والأسرَى

أوتِيَ بِتابـوتٍ خَشَـبِيٍّ كَبـيرٍ مُبَطَّـنٍ بالكِتَّـانِ، يَحْمِلُـهُ عَـدَدٌ كَبـيرٌ مِـنْ حَيوانات الشِّنْشـيلَة السَّـوْداء.. نَهَضَ مِنْ داخِلِهِ شـابٌّ قَوِيُّ البِنْيَةِ ناضِرُ البَـشْرَةِ مِنْ بَني الإنْسِ، يَبْـدو في العِشْرينَ مِنْ عُمُـرِهِ تَقْريبًا.. كان يَرْتَدِي لِباسًا بَنَفْسَجِيًّا سَميكًا مُبْهِجًا ومُزَخْرَفًا، مَجْرورًا وَراءَهُ على الأرْضِ..

دَخَـلَ قاعَتَنـا ذاتَ الغُـرَفِ الزُّجاجِيَّـةِ ومَـرَّ مِـنْ أمامِنـا دونَ أنْ يَنْظُرَ إلى وُجوهِنـا وكأنَّـهُ لمْ يَلْحَظْنا، وكانَ يَسـيرُ على جانِبَيْهِ صَفَّـانِ مِنَ أطْفالِ العِمالِقَة، وخَلْفَهُ اِمْرَأَةٌ جَميلَةٌ مِنَ البَشَرِ.. عَلَت أصواتُ «حَمْزَة» و«ياسِمين» و«سُلَيْمان» باسْمِها حينَ رَأَوْها، ولَكِنَّها رَدَّتْ عَلَيْهِم بِالتَّجاهُلِ..

لقد كانت «باربرا»... يَبْدو أنَّها مِثْلَ المَلِكِ تَتَمَتَّعُ بِدوامِ الشَّـبابِ حَتَّى المَـوْتِ مُقابِـلَ خَدَماتِهَا الدَّامِيَـةِ... تُرَى ما هُو دَوْرُهـا في دَوْرَةِ الشَّرِ هَذِه! أتَكـونُ زَوْجَةَ الحاكِـمِ أمْ جارِيَتَهُ؟ أمْ يَتَوَقَّفُ دَوْرُها فَقَطْ عِنْدَ رِعايَةِ المَلْكِ كَفَرْدٍ مِنْ أفْرادِ حاشِـيَتِهِ وخُدَّامِه لا أكثر؟ أو رُبَّما تكون عُضْوًا مِنْ أعْضاءِ جَمْعِيَّـةِ السَّـحَرَةِ الجُـدُدِ... أوتَعيشُ عُمرَهَـا هُنا في ضِيافَةِ بِـلاطِ صاحِبِ الجَلالَـةِ، أمْ تَخْـرُجُ لِعالَمِنا لِتَسْـتَدْرِجَ مَزيدًا مِنَ القَرابـينَ وأوْلِياءِ العَهْدِ؟ أم تقدر على العَيشِ في عالَمَيْنِ وتَقومُ بِالأمْرَيْنِ مَعًا؟

... وَقَفَ الشَّـابُّ ومَـنْ حَوْلَهُ في مَرْكَـزِ القاعَةِ الدَّائِرِيَّةِ الَّتـي تَحْتَجِزُنا غُرَفُهـا، ثُمّ تَمْتَمَ بِكَلِماتٍ غَيْرِ مَفْهومَةٍ بينما يَتأمَّلُ وُجوهَنا وهو على وشـك

أن يخـترق أرواحَنا بنظراتِهِ... وبَعْدَ أنِ انْتَهى مِنَ التَّمْتَمَةِ والتَّفَحُّصِ، نَظَرَ طَويلًا إلى الأسْـفَلِ ورَفَعَ ذِراعَيْهِ إلى الأعْلَى كأنَّهُ مُعَلَّقٌ أو مَصْلوبٌ، وظَلَّ عـلى هَذا الحـالِ طَويلًا بَيْنَما يُبارِكُهُ مَنْ حَوْلَـهُ بِضَرْبِ الأقْدامِ على الأرْضِ كَراقِصِي النَّقْرِ الإيقاعِي، حَتَّى كُشِـفَ السِّتارُ أخيرًا عَنْ عَرْشٍ مَهيبٍ مِنَ القَطيفَـةِ الخَضْراء عَلَيْهِ سَـيْفٌ لامِـعٌ أسْـوَدُ النَّصْلِ أخْضَرُ القائِـم، ودُرَّةٌ بَنَفْسَجِيَّةٌ إلى جِوارِ تاجٍ فَضِّيّ وصَوْلَجان أحْمَرٌ مِنَ الكِريستال.

كانَ السِّـتارُ خَفِيًّـاً وكأنَّ العَرْشَ قَدْ ظَهَرَ فَجْأةً مِـنَ العَدَمِ بَعْدَ أنْ خَلَعَ عَنْهُ عَباءَةَ الإخْفاءِ... لا شَـكَّ أنَّنَا الآنَ نَشْهَدُ مَراسِمَ تَنْصيبِ المَلِكِ الَّذي لَمْ يَعُـدْ مَجْهولَ الهَوِيَّةِ بَعْدَ أنْ صَرَخَـتْ أمُّهُ حينَ رَأَتْهُ، وخَرَجَ صَوْتُها لِلْمَرَّةِ الأولَى مُنْذُ سُلِبَتْ طِفْلَيْها وسُجِنَ الثَّالِثُ على بُعْدِ خُطُواتٍ مِنْها قَبْلَ أرْبَعِ سِـنين... ولَكِـنَّ الِابْـنَ قَدْ انْتَهَـجَ نَهْجَ خادِمَتِـهِ، فَلَمْ يَرُدّ على أمِّـهِ الَّتي لا يَعْرِفُها أو يَفْقَهُ لُغَتَها.

ليس هذا هو العجيب، العَجيبُ أنَّ «رَنا» قد عَرِفَتْهُ بَلْ وكانَتْ مُتَأكِّدَةً مِـنْ هَوِيَّتِه، على الرَّغْمِ مِـنْ أنَّهُ قد بَلَغَ العِشْرينَ مِنْ عُمُـرِهِ في أرْبَعَةِ أعْوامٍ أوْ خَمْسة!

لَمْ يَجْلِسِ الحاكِمُ المَنْشـودُ على الكُرْسِيِّ ولَمْ يَمَسّ الصَّوْلَجانَ والسَّيْفَ أو يَنْظُرْ إلى التَّاجِ، ولَكِنْ أخَذَ يَتَفَقَّدُ بِهِمَّةٍ مَواسـيرَ في أرضِ القاعَةِ عَلى شَكْلِ خَنادِق وسَراديب وقَنواتٍ مُتَشـابِكَةَ الخُطـوطِ، وبالوعاتٍ على هَيْئَةِ حُفَرٍ عِمْلاقَـةٍ مُتَفَرِّقَةٍ... ففهِمنا أنَّهُ لا يُريـدُ إلَّا فَحْصَ البِنْيَةِ التَّحْتِيَّةِ لِلتَّأكُّدِ مِنْ سلامَتِها، مِنْ أجْلِ تَصْريفٍ مُنْتَظَرٍ بالِغِ الأهَمِيَّةِ وجَليلٍ..

ثُمَّ أشـارَ لِباربرا فَأَمَرَتِ الخُدَّامَ فَوْرًا بِإحْضارِ قُدورٍ كَبيرَةٍ وعَميقَةٍ مَع سَـكاكين ضَخْمَةٍ وعَصَّارَاتٍ هائِلَةٍ، وَسْطَ زَغاريد صاخِبَةٍ وطُبولٍ قاسِيَةٍ ورَقَصاتٍ مُخيفَةٍ.

نَخْشَـى أَلَّا تَكونَ تِلْكَ مَراسِـم تَنْصيبٍ كَمَّا ظَنَّنَا.. ونَخْشَـى أنْ يَكونَ الذَّبْحُ قَبْلَ المَنْحِ، والرَّيُّ قَبْلِ الحُكِمِ!

شهادَةُ خَلدون

اِمْتَنَعْتُ عَنِ الطَّعامِ والشَّرابِ كَما عَاهَدْتُ نَفْسي، واكْتَشَفْتُ شاكِرًا أنَّ الجوعَ والعَطَشَ أكْثَرُ رَحْمَةً بِكثيرٍ مِمَّا كُنْتُ أُطْعَمُهُ وأُسْقاه، حَتّى نَدِمْتُ على عَدَمِ اتِّخاذِ ذلك القَرار مُنْذُ أرْبَعَةِ أعْوام.

... بَدَأَ جَسَدِي بعد أيَّام قليلةٍ في دُخولِ مَرْحَلَةِ ما قَبْلَ المَوْتِ، واسْتَعَدَّتْ رُوحِي لِلرَّحيلِ ومُغادَرَةِ مَسْكَنٍ يُمْسِكُها بَيْنَ حَوائِطِ هذه الإمْبِراطوريَّةِ البَغيضَةِ، وسطَ أرْواحٍ من سُلالاتِ الشَّرِّ النَّقِيَّةِ.. ولَكِنَّ رَأسي لايزالُ يَنْمو ويَتَطَوَّرُ ويُغَذَّى بِعُلومِ الغَيْبِ والماضِي، ويُسَمَّمُ بِصُوَرِ العَذابِ والتَّمْثيلِ بِالجُثَثِ الَّتي قد صُوِّرَتْ، أو لَمْ تُصَوَّرْ بَعْد.

... أُشْهَدُ الآنَ واقِعَةَ إزْهاقٍ جَديدَةٍ لِلأرْواح، وأرَى «يَاسمينَ» تُرْفَعُ هي وأبُوها مَع طِفْلٍ تَنْسُبُهُ ذاكِرَتي إلى «رَيانَ» و«رَنا»، إلى قِمَّةِ جَبَلٍ جَليدِيٍّ مُفَرَّغٍ باطِنُه، لِيَسْقُطوا في جَوْفِهِ ثُمَّ يَبْرُزوا مِنْ كِهْفٍ جانِبِيٍّ لَهُ مُتَجَمِّدِينَ...

ثُمَّ يأتِي الرَّسَّامُ صانِعُ التَّماثِيل ومُدَوِّنُ أحْداث التَّاريخ لِيُحاكِيَ ما يَرَى، ولِيَحْكِيَ ما آلَتْ إلَيْهِ الأحْداثُ، فَيَنْحُتَ نَصْبًا تِذْكارِيًا لِأبٍ يَحْتَضِنَ ابْنَتَهُ، وطِفْلٍ آخَر مَنْبوذٍ يَحْتَضِنُ نَفْسَهُ لِيُخَفِّفَ عَنْها أَلَمَ البَرْدِ.. ثُمَّ تُعْلَنُ طَهارَتُهُم بِالمَوْتِ وبَراءَتُهُم مِنَ الوَسَخ، ثُمَّ يُغْمَسُ ثَلاثَتُهُمْ في يَنْبوعِ التَّماسيح لِيَخْرُجوا مَع شَهْقَةٍ عَميقَةٍ تَصْرُخُ بِنَبَإِ عَوْدَةِ الرُّوحِ لَهُم، ثُمَّ يُتْبَعوا

بِغَمْسَـةٍ أُخْرَى أخيرَةٍ، لِيَخْرُجوا جُثَّا لَيِّنَةً مُؤَكَّدٌ مَوْتُها ومُثْبَتٌ طهْرُها، ثُمَّ يُمَدَّدُوا سَوِيًّا على سُرُرٍ مِنْ أَلْواحٍ خَشَبِيَّةٍ مُتَلاصِقَةٍ..

وانتَقَـلَ بَعْدَهـا الـدَّوْرُ إلى والِـدَيِّ الطِّفْلِ المَقْتـولِ مُنْذُ قَليـلٍ، إذْ جاءَ حَيَـوانٌ بَشِـعُ الهَيْئَـةِ كَثيفُ الشَّـعْرِ لَـهُ ثَلاثَةُ صُفـوفٍ عُلْوِيَّةٍ مِنَ الأَسْـنانِ وأُخْرَى سُفْلِيَّةٍ، جَميعُها أَنْيابٌ حادَّةٌ ولا أَضْراسَ لَه.. أَنْفُهُ الطَّويلُ يَتَحَرَّكُ بِاسْـتِمْرارٍ وفَمُهُ لا يُغْلَقُ ولُعابُهُ لا يَنْحَسِرُ.. عَيْناهُ جاحِظَتانِ ورَأْسُـهُ أَكْبَرُ مِن جِسْمِهِ بِمِقْدارِ الضِّعْفَيْنِ، وَجْهُهُ مُتَدَلِّي الخَدَّيْنِ ولا آذانَ لَه...

كانـا مَرْبوطَيْنِ في سـيقانِ أَشْـجارِ الغابَـةِ يَنْتَظِرانِ السَّـحْقَ بَـيْنَ أَنْيابِهِ والذَّوَبـانَ داخل أَحْشـائِه بِـلا صِراخٍ أو بُكاءٍ، وفي لَحَظـاتٍ كانَ قَدْ نَهَشَ وَجْهَيْهِـما ولاكَ أَطْرافَهُـما وبَلَـعَ جُلودَهُما.. وبَعْـدَ أنِ انْتَهَـى مِـنْ وَجْبَتِهِ الشَّـهِيَةِ، انْتَفَخَ بَطْنُهُ وانْزَوَى في رُكْنٍ مُنْتَشِـيًا وشِـبْهَ غائِبٍ عَنِ الْوَعْيِ من فرطِ اللَّذة..

ثُـمَّ جاءَ النَّحاتُ مَرَّةً أُخْـرَى لِيُعيدَ تَمْثيلَ ما حَـدَثَ باخْتِصارٍ وبِبَراعَةٍ ودِقَّـةٍ بالِغَيْنِ.. ثُمَّ بِانْتِهائِهِ تَمَّ إصْـدارُ الإعْلانِ الثَّانِي بِالطَّهارَةِ والبَراءَةِ مِنَ الوَسَـخِ، لِيَتَقَيَّأَ الوَحْشُ بِأَمْرٍ مِنَ المُطَهِّرِ أَشْـلاءَهُما السَّـابِحَةَ مع قاذوراتِ بَطْنِـهِ في المُخـاطِ واللُّعـابِ والعُصـارَةِ، في نَفْسِ اليَنْبـوعِ مُجَـدَّدًا، لِتَجْتَمِعَ أَجْزاؤُهُما وتَلْتَئِمَ قِطَعُهُما، فَيَشْـهَقا شَهْقَةَ مَنْ سَـبَقوهُما وتَعودَ الرُّوحُ لَهُما، قَبْـلَ الغَمْسَـةِ الثَّانِيَةِ الَّتي قـد أَخْرَجَتْهُما بَعْدَ ذَلِكَ جُثَّـيْنِ رَخْوَتَيْنِ، يَنْتَهي الأَمْـرُ بِهِـما مُمَدَّدَيْـنِ على سَريرَيْـنِ مِـنَ الأَسِرَّةِ الخَشَـبِيَّةِ العَـشْرَةِ إلى جِوارِ أَصْحابِهِم..

...تَحَـوَّلَ الجَبَـلُ الجَليـدِيُّ فَجْـأَةً إلى مَخْـروطٍ تَهُبُّ مِنْـهُ أَلْسِـنَةُ اللَّهَبِ والغـازَاتِ، لِيَتَلَـوَّنَ الهَـواءُ لِلْأَحْمَرِ وتَتَبَخَّرَ السُّـحُبُ بعد أن تَـذوبَ.. ثُمَّ يُرْفَـعُ بِبَكْرٍ إلى القِمَّةِ بِقُـوَّةٍ خَفِيَّةٍ غامِضَةٍ كَما رُفِعَ الثَّلاثَـةُ مِنْ قَبْلِهِ، ويَخْرُجُ مِـنْ نَفْسِ الكَهْفِ الجانِبِيِّ مُتَفَحِّمًا، لِيُغْمَسَ الغَمْسَـتَيْنِ المُقَدَّسَـتَيْنِ بَعْدَ أن يَنْتَهِـيَ الرِّوائِـيُ مِنْ روايَةِ هَلاكِـهِ ووَصْفِ أحْداثِ مَقْتَلِه، ثُمَّ يَسْـتَلْقي في النِّهايَةِ على سَريرِهِ الخَشَبِيِّ المُجَهَّزِ لَه مُسبَقًا..

سُدَّتْ بَعْدها السَّماءُ بِسِرْبٍ مِنَ الفَراشاتِ السَّوْداء والدَّبابير الذَّهَبِيَّةِ، ولَمْ يَعُـدْ كَذَلِـكَ في الأرْضِ مَوْضِعَ قَـدَمٍ بَعْدَ أنْ خَرَجَـتْ جَماعاتُ النَّمْلِ النَّـارِيِّ مِـنْ تَجاويـفِ الأرْضِ المُتَفَرِّقَـةِ.. فاجْتَمَـعَ سَـفَّاحو الأرضِ مـع سَـفَّاكِي السَّماءِ الدُّنْيا على جَسَـدِ «فارِس» الَّذي كانَ يَتَلَفَّتُ حَوْلَهُ بِرُعْبٍ لَمْ أرَهُ عـلى وَجْهِ إنْسـانٍ مِـنْ قَبْل.. حَتَّى غَطَّـتِ الحَـشَراتُ الفَتَّاكَةُ مَلامِحَهُ وتَعْبيراتِ وجْهِهِ قَبْلَ أنْ يَسْـقُطَ جُثَّةً هامِدَةً، في طَريقِها لِلرَّسْـمِ فَالْغَمْسِ المُزْدَوَجِ، فَالنَّوْمِ على الخَشَبِ كَسابِقيهِ مِنَ الضَّحايا والقَرابين.

ولَحِقَـتْ بِـهِ أُخْتُهُ الَّتي لَمْ تَكْـتَرِثْ بِما حَلَّ لِأخيها، مُنْشَـغِلَةً بِالتَّفْكيرِ في مَصيرِهـا ومُتَأَمِّلَةً أنْ يَكونَ أقَلَّ بَشـاعَةً مِمَّا عَهِـدَتْ ورَأَتْ.. ولَكِنْ خابَ ظَنُّها وذَهَبَ أمَلُها حينَ أُشْرِكَتْ في مُسابَقَةٍ دَمَوِيَّةٍ دونَ إرادَةٍ مِنْها، لِتُنافِسَ خَصْمَهـا على النَّصْرِ والظَّفَرِ بِالمَوْتِ المؤَجَّـلِ لِلنَّجاةِ مِنَ المَوْتِ العاجِلِ.. وانْضَمَّتْ «شـيري» إلى ذَلِكَ السِّـباقِ اللَّعينِ، لِتَكونَ هـي الخَصْمَ المُنازِعَ الَّذي سَيَسْعَى لِلْحُصولِ على لَقَبِ القاتِلِ والتَّبَرُّئِ مِنْ عارِ المَقْتولِ...

فأخَـذَتْ إحْداهُما تَغْـرِسُ الأظافِرَ في لَحْـمِ قَرينَتِهـا، والأُخْرَى تَعُضُّ

وتَشِدُّ وتَدْفَعُ... لا تَجِدانِ الأسْلِحَةَ ولا تَمْتَلِكانِ السُمَّ أوِ الأنْيابَ، ولَكِنَّهُما لا تَفْقِدانِ الثِّقَةَ فيما لَهُما مِنْ قُدْرَةٍ على الجَّرْحِ والخَنْقِ والدَّهْسِ... إلى أنْ باءَتْ كُلُّ المُحاوَلاتِ بِالفَشَلِ ولَمْ تَبْقَ وَسيلَةً مُتاحَةً في هذه الحَرْبِ لَمْ تُجَرَّبْ، فأخَذَتِ الأولَى بِالأخيرَةِ تَجُرُّها إلى قِمَّةِ الجَبَلِ الَّذي كان قد شَهِدَ قَتْلَ أرْبَعَةٍ مِنْ قَبْلِهِما، لِتُلْقِيَ بِها عِنْدَ سَفْحِهِ في بَحْرٍ لا نَجاةَ مِنْهُ ولا عُروجَ لِسَطْحِهِ إلَّا بِالطَّفْوِ بَعْدَ المَوْتِ..

وتَحَوَّلَ وَجْهُ القاتلة مُباشَرَةً إلى وَجْهِ شَيْطانٍ يُتابِعُ في ابْتِهاجٍ غَرَقَ المَغْلوبَةِ في المَعْرَكَةِ، لِتَموتَ على هذه الشَّاكِلَةِ المُتَشَيْطِنَةِ، ثُمَّ تُغمَسَ على خِلافِ أقْرانِها ثلاثَ مَرَّاتٍ بَيْنَما تُغمَس المَقْتولَةُ على غِرارِهِم مَرَّتَيْنِ، قَبْلَ اِسْتِلْقاءِ كِلْتَيْهِما على الألْواحِ وقدِ استكْمَلَتا إلهامَ أصابِعِ الفَنّانِ البارِعِ..

وَاخْتُتِمَتْ حَفْلَةُ التَّطْهيرِ والمَوْتِ بِالمَتْعوسِ «حَمْزَة»، بِوَضْعِهِ في آلَةِ تَجْفيفٍ عِمْلاقَةٍ تَمْتَصُّ السَّوائِلَ مِنْهُ وتَشْفُطُها شَفْطًا، لِتَتْرُكَهُ كَما يَتْرُكُ جِهازُ تَفْريغِ الهَواءِ أكياسَ اللَّحْمِ والخُضارِ.. وسَقَطَ جيفَةً كالأرْضِ المُشَقَّقَةِ أوِ المُومْياءِ المُحَنَّطَةِ، هَشًّا إنْ مَسَّتْهُ الرِّيحُ تُبَعْثِرُهُ لِيَصيرَ غُبارًا لا أثَرَ لَه... ثُمَّ لُمِلَمَتْ بَقاياهُ وكُنِسَتْ لِتُسْكَبَ في يَنْبوعِ الحَياةِ والتَّطْهيرِ كالأوَّلين، فَخَرَجَ صَحيحَ الجَسَدِ بِالشَّهْقَةِ إيَّاها ثُمَّ غُمِسَ أُخْرَى، لِيَموتَ مُجَدَّدًا وليكونَ التَّالي والأخيرَ على لوحَةِ الرَّسّامِ، ثُمَّ يَنْتَظِرَ مَصيرَهُ على صَحيفَةِ الخَشَبِ مع المُنْتَظِرين المُرْتَصِّينَ إلى جانِبِهِ بِالتَّوازي.

... قامَتْ «باربرا» الَّتي قد أثْبَتَتْ بَراعَتَها كَخادِمَةٍ مُخْلِصَة، بِتَنْظيمِ المَطْبَخِ العَظيمِ وتَهْيِئَتِهِ لِإعْدادِ المَأدُبَةِ المُتَرَقَّبَةِ، فَبَدَأَتْ بِرَصِّ السَّكاكين

والشَّـفَراتِ بِالعَـدْلِ والمُساوَاةِ عَـلَى صَـدْرِ كُلٍّ مِـنَ العَـشْرَةِ، ثُـمَّ أَمَرَتِ اثْنَتَـيْنِ مِنَ الإناث بِوَضْـعِ القُدور المَثْقوبَة مِنَ الأسْـفَلِ في بِدايَةِ مَجْرى كُلِّ خَنْـدَقٍ يَنْتَهي عِنْدَ إحْدَى البالوعاتِ، والَّتي تقومُ بِالتَّصْريفِ في سَّرادِيب تَحْـتَ الأرْضِ، مُنْتَهاهـا مَرْكَـز مَعْبَدِ القَلْعَـةِ. ثُمَّ قامَتَا بعد ذلـك بِتَوْصِيلِ العَصَّارَاتِ بِالقُدورِ عَنْ طَريقِ خَنادِق أصْغَر وأقَلَّ سُمْكًا.

اسْـتَغْرَقَ التَّحْضيرُ وَقْتًا أكْثَرَ بِكَثيرٍ مِنْ وَقْتِ الفَرْمِ والعَصْرِ وتَصْريفِ الـدَّمِ وإطْعامِ الأرْض الَّتي اهْتَزَّتْ ورَبَتْ مَعَ الجِبالِ والأبْنِيَةِ ووُجوهِ أفْرادِ الشَّعْبِ صَغيرِهِم وكَبيرِهِم، بِمُجَرَّدِ أنْ وُضِعَتْ أجْسادُ العَشْرَةِ قَرابين في المَعْصَرَةِ الجائِعَةِ...

فَانْفَجَرَتِ بعدها القَلْعَةُ بِالدَّم واسْتَفاقَتِ المَمْلَكَةُ العَجوزُ مِنْ سَكَراتِ المَوْتِ، لِتَتِمَّ شَّعائِرُ عِيدِ الصِّبا ويُنَفَّذَ الوَعْدُ ويُكْتَبَ لِلشَّرِ نَسْلٌ جَديدُ.

أمَّا أنا، فَقَدِ انْتَهَتْ شَـهادَتِي وانْتَقَلَ جَسَـدِي الظَّمْآنُ الجائِعُ مِنْ مَرْحَلَةِ مـا قَبْلَ المَوْتِ لِيَدْخُلَ طَوْرَ الـزَّوالِ الأكيدِ، فَيَفْنَى مِثْلَما فَنَوا ويَنْقَضي أجَلُ ذَاكِرَتِي المُعَبَّأَةِ بِالمَكارِهِ والمَفاسِد.

.. ولَكِنِّي لِجَميلِ حَظِّي لَمْ أُهْلَكْ بِالعَذابِ كما أُهْلِكوا، ولَمْ أُقْتَلْ على يَدِ مَنْ هُوَ غَيْرِي كَما هُمُ انْغَدَروا.

آخِرُ الأبرِياء

لَمْ أتَوَقَّعْ أنْ تكونَ سِعَةُ النَّخْلَةِ مِنَ الدَّاخِلِ أضْعافَ ما تَبْدو مِنَ الخارِجِ، وكأنَّها حُجْرَةٌ واسِعَةٌ أو بَيْتٌ صَغيرٌ تَزْخَرُ حوائِطُهُ بِأحْداثٍ مَنْقوشَةٍ ومُسَجَّلَةٍ بِإسْهابٍ مُثيرٍ..

..عُمري لَمْ يَتَعَدَّ التِّسْعَ سَنَواتٍ وما رَأيْتُ الكثيرَ على هذه الأرض، ولَمْ أكُنْ أعْلَمْ أنَّ تاريخَنا حافِلٌ بِتِلْكَ الأحْداثِ الَّتي تُعيدُ نَفْسَها عَبْرَ حِقْباتِهِ المُتَتالِيَةِ... كُنْتُ قَد سَمِعْتُ مِنْ أمِّي عَنْ يَوْمِ الصِّبا ولَكِنِّي لَمْ أشْهَدْهُ مِنْ قَبْل، كَما أنَّها لَمْ تَذْكُرْ لي أنَّ إنْعاشَ القَلْعَةِ يَعْنِي سَفْكَ دِماءِ الغُرَباءِ.

أعْرِفُ أنَّنا نُقَدِّسُ السِّحْرَ ونَشْتَهِي الدَّمَ ونُبيحُ الغَدْرَ، ولَكِنْ لَمْ يَخْطُرْ لي مِنْ قَبْلُ أنَّ تَنْصيبَ المُلوكِ الدُّخَلاءِ عَلَى مَوْطِنِنا هُو أمْرٌ يَسْتَدْعي التَّخْطيطَ لَهُ بِخُطوطٍ مِنَ الدَّمِ وصَرَخاتٍ مِنَ العَذابِ.. ولَمْ يُخْبِرْني أبي كذلك عَنْ سَبَبِ الحَرْبِ الَّتي قَد نَزَلَتْ على رُؤوسِ العَامَّةِ قَبْلَ أنْ يُقْتَلَ هو فيها، ولَمْ تُعْلِمْني أمِّي ماذا أفْعَلُ بَعْدَ أنْ خَبَّأتْني في جَوْفِ نَخْلَةِ السَّيْفِ لِتُجيرَني شَرَّ القِتالِ قَبْلَ أنْ تُدْهَسَ هي تَحْتَ الأقْدام.

أتَعَجَّبُ مِنْ عِلْمِها بِأمْرِ مَخْبَئِ النَّخْلَةِ هذا وكَيْفِيَّةِ الوُصولِ إلَيْهِ! ولا أفْهَمُ لِمَ لَمْ تَخْتَبِئ معي هي وأبي؟ وما الَّذي قد اقْتادَ المَمْلَكَةَ إلى ذَلِكَ الدَّمارِ وتِلْكَ الإبادَةِ الجَماعِيَّةِ الَّتي لَمْ يَنْجُ مِنْها غَيْري؟. أهِيَ وَقيعَةٌ حَديثَةٌ أمْ خُصومَةٌ قَديمَةٌ، أمْ لا هذا ولا ذاك؟

... أخَـذْتُ أقْـرَأ رُؤوسَ الأقْـلامِ مِنَ النِّهايَـةِ إلى البِدايَـةِ لِأفْهَمَ الَّذي حَدَثَ ومِنْ أيْنَ بَدَأَ ولِمَاذا؛

(نَهْتَـزُّ الهَـزَّةَ الأخيرَةَ فلا يَبْقَى مِنَّا أحَدٌ، ولَنْ يَبْقَـى مِنَّا أحْدٌ)... (تَجَلَّطَ الشُّرْيـانُ فانْفَجَـرَ اليَنْبـوعُ)... (رَدَمَ اليَنْبـوعَ أصْحابُ القاتِـلِ)... (فَتَّتَ أنْصـارُ المَقْتولِ الرُّوحَ وكَـسَروا الصَّوْلَجان وأعادوا العَقْـلَ إلَى غِمْدِهِ)... (حَشَـدَ الجُنودَ وكَدَّسَ الأتْباعَ)... (تَحَرَّرَ ذو العِلْمِ مِنْ مَحْبَسِـهِ)... (تَعَلَّمَ أُصـولَ السِّـحْرِ وفَـكَّ الأغْلال وكَـسْرَ الأصْفاد)... (قَـرَأَ وَليـدُ الذَّاكِرَةِ خَبِـيءُ السُّـورِ حَتَّى اكْتَفَـى)... (مَرَّتِ السَّـنَةُ على الثَّاني والثَّالِثِ خَمْسَـة، وعـلى الأوَّلِ واحِدَة)... (زُجَّ بِأحَدِهِم خَلْفَ الزُّجاجِ إلى جِوارِها، وبِآخَر في التَّابوتِ، وبِآخَر خَلْفَ السُّورِ في مَخْبَئِهِ)... (صَرَخَتْ أُمُّ المواليد الثَّلاثَة)

لازِلْـتُ عاجِـزَةً عَنِ الفَهْـمِ، ولا أعْلَمُ عَنْ كُلِّ ما قَـرَأْتُ إلَّا الهَزَّةَ الَّتي كادَتْ تَقْـضِي عَلَيَّ مَعَ الجَمْعِ لَـوْلا ثَبات النَّخْلَةِ... فَلْأُطالِعْ بَيْنَ السُّـطورِ عَسَى الألغازَ تَنْكَشِفُ! ولَعَلِّي أتَفَقَّهُ في تَاريخِ أُمَّتِي الَّتي قَدْ خَلَتْ، لِأعيشَ وَحيدَةً في صُحْبَةِ ما مضَى... فإنْ كانَ المُسْتَقْبَلُ قَدْ سُلِبَ مِنِّي، فليسَ لي إلّا أن أستمسِكَ بِالماضي الَّذي لم يَبقَ لي غَيرُهُ.

...طالَعْتُ فَفَهِمتُ أنّ الحافِظَ الجَديدَ الَّذي كان مع وليِّ العَهْدِ والذَّبيحِ في بَطْـنٍ واحِدَةٍ قد خَرَجَ من مَحبَسِـهِ، واخْتَبَأَ في بَيْـتِ النَّخْلَةِ السِرِّيِّ الَّذي لا يَعْلَـمُ عَنْهُ سـوى المُثَقَّفـينَ والعارِفينَ، بَعْدَ أنْ أفْلَتَ نَفْسَـهُ مِـنْ قُيودِ ما وَراءَ السُّـورِ العَظيم فَتَحَرَّرَ بِعُلومِ السِّـحْرِ السِّريَّةِ المَحْظورَة... كانَ أمْهَرَ الحَفَظَةِ وأعْلَمَهُم، كَما كانَ شَديدَ الهَيْبَةِ بَهِيَّ الطَّلْعَةِ حادَّ الذَّكاءِ، فاسْتَطاعَ

بِسُهولَةٍ جَمْعَ الحُشودَ سِرًّا بِسِحْرِ شَخْصِهِ وهَيْئَتِهِ، إلى جانِبِ سِحْرِهِ العَظيمِ الأسْوَدِ...

أرادَ أنْ يَنالَ العَهْدَ ويَضَعَ الجَوْهَرَةَ في التّاجِ ثُمَّ يَضَعَهُما على رَأسِهِ، ويُمْسِكَ بِالسَّيْفِ والصَّوْلَجانِ ويَتَلَفَّظَ بِالقَسَمِ قَبْلَ أخيهِ... ولَكِنَّ الحَربَ كانت قَدْ سَبَقَتْهُما إلى السَّيْطَرَةِ والهَيْمَنَةِ فَتَوَلَّتْ هِيَ زِمامَ الأُمورِ، إذْ أشْعَلَتْها الجَماهيرُ فَماجَ الأنْصارُ والأتْباعُ بَعْضُهُم في بَعْضٍ، يُذَبِّحونَ ويُحَرِّقونَ ويُحَطِّمونَ... وأتَوا على الأخْضَرِ واليابِسِ حَتَّى أغْرَقَتْ دِماؤهُمُ المُتَجَلِّطَةُ أرْضَ مَمْلَكَتِهِم فعاثَ فيها الخَرابُ والدَّمارُ، إلى أن أُشْعِلَ الفَتيلُ الأخيرُ بعد أن شَقَّ صاحِبُ العِلْمِ رَقَبَةَ أخيهِ لِيَفَصِلَ الرّأسَ عَنِ الجَسَدِ..

فَثارَ عَبيدُ المَقْتولِ ثَوْرَةً عارِمَةً، وأخَذوا السَّيْفَ ونَصَبوهُ في النَّخْلَةِ مُعْلِنينَ إلْغاءَ التَنْصيبِ.. ثُمَّ كَسَروا الصَّوْلَجانَ وفَتَّتوا دُرَّةَ التّاجِ ونَثَروها على الجِبالِ، كي لا يَعْتَلِيَ القاتِلُ عَرْشَ المَقْتولِ ولا يَنالَ العَهْدَ الَّذي لَمْ يُعْهَدْ إلَيْهِ أبَدًا...

ثُمَّ وَضَعوا التّاجَ على الرَّأسِ المَقْطوعِ ودَفَنوها مَعَ العَرْشِ تَحْتَ أرْضِ المَعْبَدِ العَظيمِ، فَاهْتاجَ أعْوانُ القاتِلِ بَعْدَ إهانَةِ سَيِّدهم وطَمْسِ مُمْتَلَكاتِ المَلِكِ، فَجَمَعوا الحِجارَةَ والرُّكامَ والثَّرى لِرَدْمِ اليَنْبوعِ وسَدِّ شُرْيانِ القلعة الرَئيسيّ، لِكيلا يَأْتيَ حاكِمٌ مِنْ بَعْدِهِ ولا يَبْقَى على الأرضِ مَحْكومٌ.. فانْفَجَرَ الشُّرْيانُ وزُلْزِلَتِ الأرْضُ حَتى بَلَعَتْ كُلَّ مَنْ تَدُبُّ أو لا تَدُبُّ الحَياةُ فيهِ، ورُجَّتِ المَعابِدُ والمَسَلّاتُ فأهْوَتِ الهَزَّةُ الجُدرانَ والصُّروحَ.

... اسْتَرْسَلْتُ في المُطالَعَةِ والتِّلاوَةِ لِأتَوَصَّلَ إلى أخْبارِ القاتِلِ

ونِهايَتِـه، حَتّى عَرِفْـتُ أَنَّهُ قَدْ هَـرَعَ إلى عَرينِهِ في جَوْفِ النَّخْلَـةِ غَيْرَ آبِهٍ بِما حَلَّ بِأعْوانِهِ وخُدَّامِهِ وأتْباعِهِ، لا يُفَكِّرُ إلَّا بِنَفْسِـهِ ولا يَصْبو إلَّا لِنَجاتِهِ... فاسْـتَوْقَفَتْهُ امْرَأَةٌ مِنَ الشَّـعْبِ وهو في طَريقِهِ لِتُذَكِّرَهُ بِنَفْسِـها، حينَ كانَتْ تَقْطَعُ المَسـافاتِ الطَّويلَةَ ذِهابًا وإيابًا كُلَّ يَوْمٍ مِنْ أجْلِهِ، لِتَجْلِبَ لَهُ الطَّعامَ والشَّرابَ في مَلْجَئِهِ السِّرِّيِّ داخِلَ الجِذْعِ، تأييدًا لَهُ وإيمانًا بِه..

ولَكِنَّـهُ لَمْ يَتَذَكَّرْهـا، أوِ اخْتـارَ أنْ يَتَناسـاها عَنْ عَمْـدٍ، ورَفَضَ تَقْديمَ العَـوْنِ لَها ولِأُسْرَتِها بَعْدَ أنْ أهانَها ونَهَرَهـا.. وأبَى أنْ يُدْخِلَ أحَدَهُم مَخْبَأَهُ الّذي على الرَّغْمِ مِنْ سِـعَتِهِ، إلَّا أنَّهُ لَا يَسْـتَضيفُ غيرَ شَـخْصٍ واحِدٍ على حَدِّ قَوْلِهِ.

تَرَجَّتْهُ الأُمُّ وتَوَسَّلَتْ إلَيْهِ أنْ يَتْرُكَ المَكانَ لِابْنَتِها الوَحيدَةِ، وأنْ يَذْهَبَ هـو لِيُحارِبَ مَـع مَنْ ضَحَّوا بِأرْواحِهِم مِـنْ أجْلِهِ.. ولَكِنَّهُ قَـدْ تَوَلَّى عَنْها وهَمَّ بِالدُّخولِ بَعْدَ أنْ سَبَّها، فَحالَتْ بِجَسَدِها بَيْنَهُ وبَيْنَ المَدْخَلِ لِيَتَصارَعَ كِلاهُمـا عِنْدَ الجِذْعِ لِوَقْتٍ لا يَكادُ يُذْكَر، إذ كانَتْ نَتيجَةُ المَعْرَكَةِ مَحْسـومَةً مِنْ قَبْلِ أنْ تَبْدَأ..

فَلَـمْ يَكُـنْ مِنَ الصَّعْبِ أبدًا على امْـرَأةٍ مِنَ العَمالِقَةِ قَتْـلَ بَشَرِيٍّ يَموتُ بِضَرْبَـةٍ على الرَّأسِ أو وَخْـزَةٍ مِنْ إصْبَعِها في القَلْـبِ، ولَكِنَّها اخْتارَتْ أنْ تَطْرَحَـهُ أرْضًا وتَضْغَـطَ بِقَدَمِها على عُنُقِهِ لِيَموتَ بَعْـدَ أنْ يُهانَ في غَمْضَةِ عَـيْنٍ... ثُمَّ حَفَرَتْ حُفْرَةً ضَحْلَةً بالقُـرْبِ مِنْ النَّخْلَةِ وألْقَتْ بِهِ فيها، قبل أن تُغَطِّيَ جُثَّتَهُ بِأوْراقِ الشَّجَرِ والطِّينِ لِتُخْفِيَهُ عن عَيْنَيّ ابْنَتِها القادِمَةِ قريبًا إلى مَسْكَنِها الجَديد..

... رَكَضَتِ الأُمُّ لِتَجْلِبَ طِفْلَتَها وتَدْفَعَ بِها إلى داخِلِ النَّخْلَةِ، من أجْلِ أَلّا تُعانِيَ الصَّغيرَةُ شَرَّ الحَرْبِ ولا تَذوقَ الخَوْفَ مِنَ المَوْتِ... ثُمَّ تَرَكَتْها دونَ أنْ تُوصِيَها بِشَيءٍ أو تُخْبِرَها كَيْفَ تَتَصَرَّفُ بَعْدَ انْتِهاءِ القِتالِ والقَضاءِ على بَنِي جِنْسِها، فَهِيَ في الحَقيقَةِ أكْثَرُ جَهْلًا وحيرَةً مِن ابْنَتِها، ولا فِكْرَةَ لَدَيْها عَنْ شَكْلِ المُسْتَقْبَلِ الَّذي قد تُواجِهُهُ وَحْدَها، وكيفَ سَتَعيشُ وما الَّذي قَدْ يَجْعَلُها تَرْغَبُ في أنْ تَحْيا.

أفَهَكَذا أنْجَتْنِي أُمِّي؟ أَهِيَ بِالفِعْلِ قَدْ قَتَلَتْ؟ لا أُصَدِّقُ أنَّها كانَتْ تَخْدِمُ ذَاكَ المُتَجَبِّرَ، فَكَيْفَ اسْتَدْرَجَها لِتَكونَ أحَدَ عَبيدِهِ؟

لَيْتَنِي لَمْ أقْرَأْ ولَمْ أعْلَمْ ولَمْ أفْهَم!

... أُقْسِمُ على نَفْسي أنِّي سَأُشَيِّدُ مَمْلَكَةً عادِلَةً جَديدَةً وجَليلَةً! وسَأنْتَقِي أفْرادًا مِنَ الإنْسِ لِيَأتُوا إلَيْها بِإرادَتِهِم ويُعَمِّروها بِالعَمَلِ والجَمالِ، وسَأُكَرِّمُهُم ثُمَّ أُعَوِّضُهُمْ عَمَّا حَدَثَ لِأجْدادِهِمْ مُنْذُ قَديمِ الأزْمان، وسنُقيمُ مَعًا الحَضارَةَ المَهيبَةَ بِالخَيْرِ والعَدْل والأمان.. ولَنْ تَشْرَبَ المَمْلَكَةُ الدَّمَ وتَقْتاتَ على الأرْواحِ مَهْما شاخَتْ، فَسَتَقومُ بَعْدَ السُّقوطِ بِالسَّواعِدِ ولَيْسَ بِالطُّقوسِ والأعيادِ والشَّعائِر، وسَيُبْطَلُ السِّحْرُ وتُطْمَسُ الخُرافاتُ... لَنْ أَتَّبِعَ دينَ آبائي وأجْدادِي، وسَأعْصِي ما كانوا يَعْبُدونَ، وأُطيعُ خالِقَ الحَقِّ وفاطِرَ عَظيمَ الخُلُقِ في النُّفوسِ.

***

سَمِعَتِ الطِّفْلَةُ دَبيبَ أقْدامٍ في الخارِجِ، وتعَجَّبَتْ مِنْ نَجاةِ أحَدِهِمْ بَعْدَ تِلْكَ الرَّجَّةِ المُدَوِّيَةِ.. فَهَمَّتْ بِالخُروجِ لِاسْتِكْشافِ هَوِيَّةِ ذَلِكَ الزَّائِرِ

مُسْتَبْشِرَةً بالأُنْسِ بِه، ولَكِنَّ فُضولَ أصابِعِهِ كانَ قَدْ سَبَقَ بُروزَها مِنْ داخِلَ الجِذْعِ، فاحْتَرَقَتْ فَوْرًا في مَكانِها، وهي لا تَعْلَمُ مِنْ أيْنَ أتَتْ هذه النَّارُ أو إنْ كانَ هُناكَ سَبيلًا لِإخْمادِها.

... وقَتَلَ «خَلْدونُ» بِفُضولِهِ وأمانِيِّهِ الطِّفْلَةَ الحالِمَةَ بالخَيْرِ والسَّلام... حَرَّقَها بَعْدَ أنْ أمْسَكَ السَّيْفَ لِيَنْتَزِعَهُ بِغَيْرِ حَقٍّ، ولَمْ يَتْرُكْهُ حَتَّى احْتَرَقَتِ النَّخْلَةُ بِمَنْ فيها ثُمَّ تَرَكَها وفَرَّ هارِبًا...

وما أوْقَفَ انْتِحارُهُ في المَاضِي عَمَلَ يَدَيْهِ عَنْ جَهْلٍ في المُسْتَقْبَلِ.

***

ولا يزال الوَلَعُ بِالسِّيادَةِ يُفْنِي الحَضاراتِ ويُزْهِقُ الأرْواحَ ويَقْتُلُ المُسْتَقْبَلَ في مَهْدِهِ.. ولا زالَ التَّاريخُ رَغْمَ بِصماتِ أصابِعِ كَفَّيْهِ وقَدَمَيْهِ على الخُدودِ، لا يُعَلِّمُ الجَهَلَةَ ولا يَهْدِي الضُّلَالَ ولا يَعِظُ الخَطَّائينَ.. ولانَزالُ نُحاكِي جَرائِمَنا ونَفْرِضُ بِالغَصْبِ سُلْطَتَنا...

نَطْمَعُ فيما لا نُمْلِكُ فَنُطيعُ شَهْوَةَ الِاغْتِصابِ ثُمَّ نَتَقَنَّعُ بِالتَّبَجُّحِ، ثُمَّ لا نَهْدَأُ ولا نَرْضَى ولا نَكْتَفِي، ثُمَّ نَصْبو لِلْمَزيدِ...

لا نَخْجَلُ مِنْ أحْلامٍ لازالَتْ تَتَرَصَّدُ لِلأبْرِياءِ، وآثارٍ لَمْ تَبْرَأْ مِنْها أجْسامٌ وعُقولٌ وليدة.. لا نَمَلُّ مِنَ العَداءِ ولا نَكَلُّ مِنَ الخِصامِ...

ولا نَزالُ نَكيدُ ونُدَبِّرُ لِحُروبٍ تالِيَةٍ مِنْ قَبْلِ أنْ تَلْتَئِمَ الجروحُ الحالِيَة...

وكأنَّ شَيْئًا في الماضي لَمْ يَكُنْ، وكأنَّ شَيْئًا مِنْ قَبْلُ لَمْ يَحْدُث!

تمت بحمد الله

www.elfnaar.com
@elfnaar

ترحب منشورات الفنار دائمًا بآراء، ومُقترحات قرائها الأعزَّاء، وتدعوهم دومًا لإفادتنا بملاحظاتهم لتطوير منتجها الثقافي على الدوام

راسلونا عبر بريدنا الالكتروني

elfnaar@gmail.com